

تَفْسِيرُ الْمُرَائِغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية

بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الثاني والعشرون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثاني والعشرون

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

يقنت : أى يخشع ويخضع ، وأعتدنا : هيأنا وأعددنا ، كريماً : أى سالماً من كل آفة وعيب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال — مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم فى الدنيا وفى الآخرة ، فى الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب ولا يخشين من أجله العقاب ، وفى الآخرة يرزقن ما لا يحد ولا يوصف من غير نكد ولا كدر .

الإيضاح

(ومن يقنت منكنَّ لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) أى ومن تطع منكن الله ورسوله وتعمل صالح الأعمال نضاعف لها الأجر والثوبة ، لكرامتها علينا بوجودها في بيت النبوة ومنزل الوحي ونور الحكمة وعين الهداية .

(وأعدنا لها رزقا كريما) أى وزيادة على هذا أعدنا لها الكرامة في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فلأنها تكبرن مرموقة بعين الغبطة لدى نساء العالمين ، ومنظورا إليها نظرة المهابة والإجلال ، وأما في الآخرة فلما لها من رفيع الدرجات ، وعظيم المنازل عنده تعالى في جنات النعيم .

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ
وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِنَّ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَأَذْكُرَنَّ مَا يُنْتَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)

شرح المفردات

أصل أحد وحَد بمعنى الواحد وهو في النقي عام للمذكر والمؤنث ، والواحد والكثير : أى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، فإذا استقرت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والمسابقة ، والاتقاء بمعنى الاستقبال ، وهو بهذا المعنى معروف في اللغة قال النابغة :

سقط النَّصِيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقنتنا باليد

أى استقبلتنا باليد قاله أبو حيان في البحر، ومنه قوله تعالى : « أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ». فلا تخضعن بالقول : أى فلا تجبن بقول خاضع لئن، أى إذا استقبلتن أحدا فلا تلن الكلام ولا ترقفنه ، مرض : أى ريبة وفجور ، قولاً معروفاً : أى حسناً بعيداً من الريبة غير مُطْمَعٍ لأحد ، قرن ، من قرَّ يقرُّ من باب علم وأصله اقررن دخله الحذف ، والتبرج : إبداء المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، والجاهلية الأولى : هى الجاهلية القديمة جاهلية الكفر قبل الإسلام ، وهناك جاهلية أخرى هى جاهلية الفسوق فى الإسلام ، والرجس : فى الأصل الشئ القدر ؛ والمراد به هنا الإثم المدنس للعرض ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن : أى وعظن الناس بما يتلى فى بيوتكن ، وآيات الله : هى القرآن ، والحكمة : هى السنة وحديث الرسول .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما اختص به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب ، أردف ذلك ببيان أن لهن مكانة على بقية النساء ، ثم نهاهن عن رخامة الصوت ولين الكلام إذا هن استقبلن أحدا حتى لا يطمع فيهن من فى قلبه نفاق ، ثم أمرهن بالقرار فى بيوتهن ونهاهن عن إظهار محاسنهن كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى ، ثم أمرهن بأهم أركان الدين ، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما يأمر وينهى ، لأنه تعالى أذهب الآثام عن أهل البيت وطهرهم تطهيرا ، ثم أمرهن بتعليم غيرهن القرآن وما يسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم من السنة .

الإيضاح

(يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) أى يا نساء النبي إذا استقصيت النساء جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساو يكن فى الفضل والكرامة .
والخلاصة — إنه لا يشبهكن أحد من النساء ولا يلحقكن فى الفضيلة والمنزلة .

(إن اتقيتين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً) أى إذا استقبلتن أحداً من الرجال فلا ترققن الكلام فيطمع في الخيانة من في قلبه فساد وريبة من فسق ونفاق ، وقلن قولاً بعيداً عن الريبة غير مطمع لأحد .

وتفسير الاتقاء بهذا المعنى أبلغ في مدحهن ، إذ لم يعلق فضلهن على التقوى ، ولا نهين عن الخضوع بها ، إذ هن متقيات لله في أنفسهن ، والتعليق يقتضى بظاهره أنهن لسن متخليات بالتقوى قاله في البحر ، وقال في الكشاف : إن المعنى إن أردتن التقوى ، أو إن كنتن متقيات اه ، يريد إن اتقيتين مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم .

وإجمال هذا — خاطبن الأجانب بكلام لا تخيم فيه للصوت ولا تخاطبهن كما تخاطبن الأزواج .

ولما أمرهن بالقول المعروف أتبعه بذكر الفعل فقال :

(وقرن في بيوتكن) أى والزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ، وهو أمر لمن ولسائر النساء ، أخرج الترمذى والبرزاري عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها » .

(ولا تهرجن تبرج الجاهلية الأولى) أى ولا تبدين زينتك ومحاسنك للرجال كما كان النساء يفعلن ذلك في الجاهلية قبل الإسلام .
وبعد أن نهاهن عن الشر أمرهن بالخير فقال :

(وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) أى وأدين الصلاة على الوجه القيم المعتبر شرعاً ، وأعطين زكاة أموالكن كما أمركن الله .

وخص هاتين العبادتين بالذكر لما لهن من كبير الآثار في طهارة النفس وطهارة المال ،

وأطعن الله ورسوله فيما تأتين وما تذرنا واجعلن نصب أعينكن اتباع الأوامر وترك النواهي .

ثم ذكر السبب في هذه الأوامر والنواهي على وجه عام فقال :

(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) أى إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت الرسول ويطهركم من دنس الفسق والفجور الذى يعلّق بأرباب الذنوب والمعاصي .

وأهل بيته صلى الله عليه وسلم من كان ملازما له من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب ، وكلما كان المرء منهم أقرب وبالنبى أخص وألزم كان بالإرادة أحق وأجدر ، وعن ابن عباس قال : «شهدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر يأتى كل يوم باب على بن أبى طالب عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم ورحمة الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، الصلاة يرحمكم الله ، كل يوم خمس مرات » .

ثم بين ما أنعم به عليهم من أن يبوتن مهابط الوحي بقوله :

(واذا كن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) أى واذا كن نعمة الله عليكم بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله وما ينزل على الرسول من أحكام الدين ولم ينزل به قرآن ، فاحمدن الله على ذلك واشكرنه على جزيل فضله عليكم . ولا يخفى ما في هذا من الحث على الانتهاء والائتمار فيما كلفته ، كما لا يخفى ما في تسمية ما نزل عليه من الشرائع بالحكمة ، إذ فيه الحكمة في صلاح المجتمع في معاشه ومعاذه ، فمن استمسك به رشّد ، ومن تركه ضلّ عن طريق الهدى ، وسلك سبيل الردى .

(إن الله كان لطيفا خبيرا) أى إن الله كان ذا لطف بكن ؛ إذ جعلكن

في البيوت التى تتلى فيها آياته وشرائعه ، خبيرا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَائِتِينَ وَالْقَائِتَاتِ
 وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
 وَالْمُتَّصِدِّقِينَ وَالْمُتَّصِدِّقَاتِ وَالصَّائِعِينَ وَالصَّائِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ
 وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً
 وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

شرح المفردات

الإسلام : الانقياد والخضوع لأمر الله ، والإيمان : التصديق بما جاء عن الله من
 أمر ونهى ، والقنوت : هو الطاعة في سكون ، والصبر : تحمل المشاق على المكروه
 والعبادات والبعد عن المعاصي ، والخشوع : السكون والطمأنينة ، أعد الله لهم مغفرة :
 أى هيا لهم مغفرة تمحو ذنوبهم ، وأجرا عظيما : أى نعيما عند ربهم يوم القيامة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه نساء نبيه صلى الله عليه وسلم بأشياء ونهاهن عن أخرى ،
 ذكر هنا ما أعد للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده في الدار الآخرة ،
 روى أحمد عن عبد الرحمن بن شعبة قال : «سمعت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم
 تقول : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : مالنا لانذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟
 قالت فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى
 ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر
 يأيتها الناس إن الله يقول في كتابه : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات -
 إلى قوله : أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) .

الإيضاح

ذكر الله سبحانه الأوصاف التي يستحق بها عباده أن يمحو عنهم ذلالتهم ويثيبهم بالنعم المقيم عنده وهي :

(١) إسلام الظاهر بالانقياد لأحكام الدين في القول والعمل .
 (٢) إسلام الباطن بالتصديق التام والإذعان لما فرض الدين من الأحكام وهذا هو الإيمان .

(٣) القنوت وهو دوام العمل في هدوء وطمأنينة كما قال: « أَمْ مَنْ هُوَ قَائِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ؟ » وقال : « يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

فالإسلام والانقياد مرتبة تعقبها مرتبة الإذعان والتصديق وينشأ عن مجموعهما القنوت والخشوع .

(٤) الصدق في الأقوال والأعمال ، وهو علامة الإيمان كما أن الكذب أمانة النفاق ، فمن صدق نجا ، وفي الحديث « عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار » .

(٥) الصبر على المكروه وتحمل المشاق في أداء العبادات وترك الشهوات .

(٦) الخشوع والتواضع لله تعالى بالقلب والجوارح ابتغاء ثوابه وخوفاً من عقابه كما جاء في الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(٧) التصديق بالمال والإحسان إلى الخواص الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، وقد ثبت في الصحيح « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وفي حديث آخر « والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » .

(٨) الصوم فإنه من أكبر العون على كسر الشهوة كما روى ابن ماجه من قوله صلى الله عليه وسلم «والصوم زكاة البدن» أى إنه يزكّيه ويطهره من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء . » .

(٩) حفظ الفروج عن المحارم والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، مَن ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . » .

(١٠) ذكر الله ذكراً كثيراً بالألسنة والقلوب ، روى عن مجاهد أنه قال : لا يكتب الرجل من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله تعالى قائماً وقاعداً ومضطجعاً . وأخرج النسائى وابن ماجه وأبو داود وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصلياً ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات . » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سبق المفردون ، قالوا وما المفردون ؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » وروى أحمد عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلاً سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم أ أكثرهم لله تعالى ذكراً ، قال فأى الصائمين أ أكثر أجراً ؟ قال صلى الله عليه وسلم أ أكثرهم لله عز وجل ذكراً ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أ أكثرهم لله ذكراً . فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال صلى الله عليه وسلم : أجل . » .

هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف يمحون عنهم ذنوبهم ويؤتيهم الأجر العظيم فى جنات النعيم .

قصة زينب بنت جحش

زواجها لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلاقها منه ،
زواجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لإبطال عادة جاهلية ، وهى إعطاء المتبنى حكم
الابن فى حرمة زواج امرأته بعد طلاقها .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ
لَهُمْ خَيْرَةٌ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ
زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِّى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ
أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَمَا قُضِيَ زَيْدُ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لِسَكَيْلًا يَكُونُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ
اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَاؤُوا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ
حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)

شرح المفردات

تقول ما كان لفلان أن يفعل كذا : أى لا ينبغى له ، والخيرة : الاختيار ، ميبنا :
أى ظاهر الانحراف عن سنن الصواب ، أنعم الله عليه : أى بالإسلام ، وأنعمت عليه :

أى بالعتق ونيل الحرية ، واتفق الله : أى فى أمرها ولا تطلقها ضرارا ، وتحشى الناس : أى تخاف من اعتراضهم وقولهم إن محمدا تزوج امرأة ابنه ، والوطر : الحاجة ؛ والمراد أنه لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها ، زوجنا كها : أى جعلناها زوجة لك ، والخرج : المشقة ، فرض له : أى قدر من قولهم فرض للجند كذا أى قدر لهم ، سنة الله : أى سن الله ذلك سنة ، خلوا : أى مضوا ، قدرا مقدورا : أى مقضيا وكاننا لا بد منه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه أن يخير زوجته بين البقاء معه والتسريح سراحا جميلا وفهم من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد ضررا لغيره ، فمن كان ميلا إلى شيء ممكنه منه وترك حظ نفسه لحظ غيره — ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان فى كل شيء كما أعطى ذلك للزوجات ، بل هناك أمور لاختيار المؤمن ولا مؤمنة فيها وهى ما حكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتبع ، وما أراد النبي صلى الله عليه وسلم فهو الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبيها .

وقد نزلت هذه الآيات فى زينب بنت جحش بنت عمه النبي صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاد زيد ابن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزل : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة الخ فلما نزلت قالوا رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مِداً من طعام وثلاثين صاعا من تمر .

والحكمة فى هذا الزواج الذى لم يبال فيه النبي بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، أن التصاق الأعداء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعدده أصلا ترجع إليه فى الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعوى جميع حقوق الابن ويحجرون عليه الأحكام التى يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب — فأراد الله

محو ذلك بالإسلام حتى لا يعرف إلا النسب الصريح ومن ثم قال في أول السورة « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » وبهذا حرم على المسلمين أن ينسبوا الدعوى إلى من تنبأه ، وأن يكون للمتبنّى إلا حق المولى والأخ في الدين وحظر عليهم أن يقتطعوا له من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا .

وما رسخ في النفوس بحكم العادة لا يمكن التخلص منه إلا بإرادة قوية تسخر بسلطانها ، ولا تجعل لها حكما في الأعمال إذا كانت المصلحة في خلاف ذلك ، ومن ثم ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل كما ألغى بالقول في أحد عتقاه ، ومن ثم أرغم بنت عمته لتتزوج بزید وهو متبنّاه ليكون هذا الزواج مقدّمة لتشريع إلهي جديد .

ذاك أنه بعد أن تزوجها زيد شمخت بأنفها عليه وجعلت تفخر عليه بنسبها ، فاشتكى منها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة وهو عليه السلام يلقبه الحياء حينئذ في تنفيذ حكم الله ويقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ، إلى أن غلب حكم الله وسمح لزيد بطلاقها ، ثم تزوجها بعد ذلك ليريق حجاب تلك العادة كما قال : « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَاءِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » ثم أكد هذا بقوله : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » .

الإيضاح

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أي ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله قضاءً أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم ويخالفوا أمر الله ورسوله وقضاءهما ويعصياها .

والخلاصة — لا ينبغي المؤمن ولا مؤمنة أن يختارا أمرا قضى الرسول بغيره .
ثم أكد ما سلف بقوله :

(ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا) أى ومن يعص الله ورسوله
فيا أمرا ونهيا فقد جار عن قصد السبيل وسلك غير طريق الهدى والرشاد ، وقد
علمت فيما سلف سبب نزول هذه الآية .

ونحو الآية قوله : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ
أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

ثم ذكر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تثبيتا على الحق وليدفع عنه ماحاك فى صدور
ضعاف العقول ومرضى القلوب فقال :

(وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله)
أى واذكر أيها الرسول حين قولك لمولاك الذى أنعم الله عليه فوفقه للإسلام وأنعمت
عليه بحسن تربيته وعتقه وتقرّيبه منك : أمسك عليك زوجك زينب واتق الله
فى أمرها ولا تطلقها ضاررا وتمللا بتكبرها وشموخا بأنها ، فإن الطلاق يشينها ،
وربما لا يجد بعدها خيرا منها .

وفى التعبير بأنعمت عليه إيماء إلى وجه العتب بذكر الحال التى تنافى ما صدر
منه عليه السلام من إظهار خلاف ما فى نفسه ، إذ هذا إنما يكون حين الاستحياء
والاحشام ، وكلاهما مما لا ينبغي أن يكون مع زيد مولاة .

(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) أى وأنت تعلم أن الطلاق لا بد منه بما أهلك
الله أن تمثل أمره بنفسك لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتي بعدك ، وإنما غلبك
فى ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه ، فأنت تخفى فى نفسك
ما الله مبديه من الحكم الذى أهلك .

(وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) أى وتخاف من اعتراض الناس والله

الذي أمرك بهذا كله أحق وحده بأن تخشاه، فكان عليك أن تمضي في الأمر قُدماً
تعميلاً لتنفيذ كلمته وتقرير شرعه .

ثم زاد الأمر بيانا بقوله :

(فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج
أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) أى فلما قضى زيد منها حاجته وملأها ثم طلقها
جعلناها زوجا لك لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا في أنفسهم حرجا من
أن يتزوجوا نساءكن من قبل أزواج أدعيائهم .

(وكان أمر الله مفعولا) أى وكان ما قضى الله من قضاء كائنا لاحالة ؛ أى إن
قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله كأن ماض لا بد منه .

روى البخارى والترمذى « أن زينب رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي
صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن أهلوكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات »
وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : « كانت تقول للنبي صلى الله عليه وسلم إني لأدرك
عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تُدركُ بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإني
أنكحك الله إياى من السماء ، وإن السفير لجبريل عليه السلام » .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أى ليس على النبي حرج فيما
أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها .

ثم بين أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بدعا في الرسل فيما أباح له من
الزوجات والسرارى فقال :

(سنة الله في الذين خلوا من قبل) أى إن الله سن بك أيها الرسول سنة
أسلافك من الأنبياء الذين مضوا من قبل فيما أباح لهم من الزوجات والسرارى ،
فقد كان لسليمان وداود وغيرهما عدد كثير منهن .

وفي هذا رد على اليهود الذين عابوه صلى الله عليه وسلم (وحاشاه) بكثرة الأزواج

(وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى وكان أمر الله الذى يقدره كائنا لا مجاله .
 وواقعا لا محيد عنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .
 ثم وصف الذين خلوا بصفات الكمال والتقوى وإخلاص العبادة له وتبليغ
 رسالته فقال :

(الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) أى هؤلاء
 الذين جعل محمد متبعاً سنتهم وسالكاً سبيلهم هم الذين يبلغون رسالات ربهم إلى
 من أرسلوا إليهم ويخافون الله فى تركهم تبليغ ذلك ولا يخافون سواه .
 والخلاصة — كن من أولئك الرسل الكرام ولا تخش أحدا غير ربك فإنه
 يحملك ممن يريدك بسوء أو يمسيك بأذى .

(وكفى بالله حسيبا) أى وكفى الله ناصرنا ومعينا وحافظا لأعمال عباده ومحاسبا
 لهم عليها .

ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب قالوا تزوج حليمة ابنة فأنزل الله :
 (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) أى
 ما كان لك أن تخشى أحدا من الناس بزواج امرأة متبنك لا ابنك ، فإنك لست
 أباً لأحد من الناس ، ولكنك رسول الله فى تبليغ رسالته إلى الخلق ، فأنت أب
 لكل فرد فى الأمة فيما يرجع إلى التوقير والتعظيم ووجوب الشفقة عليهم كما هو دأب
 كل رسول مع أمته .

وخلاصة ذلك — ليس محمد أب لأحد منكم أبوة شرعية يترتب عليها حرمة
 المصاهرة ونحوها ، ولكنه أب للمؤمنين جميعا فيما يجب عليهم من توقيره وإجلاله
 وتعظيمه ؛ كما أن عليه أن يشفق عليهم ويحرص على ما فيه خيرهم وفائدتهم فى المعاش
 والمعاد وما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

أولاد النبي صلى الله عليه وسلم

ولد للنبي صلى الله عليه وسلم من خديجة ثلاثة ذكور: القاسم والطيب والظاهر ، وماتوا صغارا لم يبلغ أحد منهم الحلم ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ومات رضيعا ، وولد له من خديجة أربع بنات : زينب ورُقِيَّة وأم كلثوم وفاطمة ، وقد مات الثلاث الأول في حياته صلى الله عليه وسلم ، وماتت فاطمة بعد أن قبض صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بستة شهور .

(وكان الله بكل شيء عليما) فيعلم من هو الأجدد بالبدء به من الأنبياء ، ومن هو الأحق بأن يكون خاتمهم ، ويعلم للمصالح في ذلك .

ونحو الآية قوله : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرِّمُوا بِاللَّهِ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي صلى الله عليه وسلم مع ربه من تقواه وإخلاصه له في السر والعلن ، وما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وأقاربه من راحتهم وإيتارهم على نفسه فيما يطلبون كما يوصى إلى ذلك قوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ) الخ ، أرشد عباده إلى تعظيمه تعالى وإجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلًا ، فهو الذى يرحمهم وملائكته يستغفرون لهم كي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان بعباده للمؤمنين رحيمًا .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكرا كثيرا فى جميع أحوالكم جهد الطاقة لأنه المنعم عليكم بأنواع النعم وصنوف المنن .

(وسبحوه بكرة وأصيلا) أى وترهه عما لا يليق به طرفى النهار ، لأن وقت البكرة وقت القيام من النوم وهو يعدّ كأنه حياة جديدة بعد موت ، ووقت الأصيل وقت الانتهاء من العمل اليومي ، فيكون الذكر شكرا له على توفيقه لأداء أعمال الدنيا والقيام بالسعى على الأرزاق الدنيوية فلم يبق إلا السعى إلى ما يقرب إلى الله بعمل الآخرة .

ثم ذكر السبب فى هذا الذكر والتسبيح فقال :

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته) أى إن ربكم الذى تذكرونه الذكر الكثير وتسبحونه بكرة وأصيلا - هو الذى يرحمكم ويثنى عليكم فى الملائكة من عباده وتستغفر لكم ملائكته .

وفى هذا من التحريض على ذكره والتسبيح له ما لا يخفى .

(ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أى إنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم - أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ،

(وكان بالمؤمنين رحيما) فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصّره الطريق الذى حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر ، وأما فى الآخرة فإنه آمنهم من الفزع الأكبر وأمر الملائكة أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(تحيتهم يوم يلقونه سلام) أى تحييتهم الملائكة بذلك إذا دخلوا الجنة ؛ كما قال تعالى : «والملائكة يدخُلون عليهم من كل باب . سلامٌ عليكم بما صبرتم» .

(وأعدّ لهم أجرا كريما) أى وهيا لهم ثوابا حسنا فى الآخرة يأتهم بلا طلب بما يتمتعون به من لذات المآكل والمشرب والملابس والمساكن فى فسيح الجنات مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تأديبه لنبيه فى ابتداء السورة ، وذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله - ذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع الخلق كافة .

الإيضاح

(يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) أى يا أيها الرسول إنا بعثناك شاهدا على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم ، وترى أعمالهم ، وتتحمل الشهادة بما صدر منهم من تصديق وتكذيب ، وسائر ما يفعلون من الهدى والضلال ، وتؤدى ذلك يوم القيامة ، وأرسلناك مبشرا لهم بالجنة إن صدقوك ، وعلموا بما جنتهم به من عند ربك ، ومنذرا لهم بالنار يدخلونها فيعذبون فيها إن هم كذبوك وخالفوا ما أمرتهم به ونهيتهم عنه .

(وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) أى وداعيا الخلق إلى الإقرار بوحدايته تعالى ، وسائر ما يجب له من صفات الكمال ، وإلى عبادته ، ومراقبته فى السر والعلن -

وسراجا منيرا يستضيء بك الضالون في ظلمات الجهل والغواية ، و يقتبس من نورك المهتدون ، فيسلكون مناهج الرشd والسعادة .

(وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) أى وراقب أحوال أمتك ، وبشر المؤمنين بأن لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم ، فإنهم سيقبرون نظم المجتمع من ظلم وجور إلى عدل وصلاح ، ويدخلون الأمم المتعثرة فى أبواب الضلال فى زمرة الأمم التى عليها صلاح البشر فى مستأنف الزمان .

أخرج ابن جرير وعكرمة عن الحسن أنه قال : لما نزل قوله : « لِيَعْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » قالوا : يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا » .
ولما أمره الله بما يسرّ نهاه عما يضر ، فقال :

(ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أى ولا تطع قول كافر ولا منافق فى أمر الدعوة ، وألن الجانب فى التبليغ ، وارفق فى الإنذار ، واصفح عن أذاهم ، وأصبر على ما ينالك منهم ، وفوض أمورك إلى الله ، وثق به فإنه كافيك جميع من دونك ، حتى يأتىك أمره وقضاه ، وهو حسبك فى جميع أمورك ، وكائلك وراعيك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَّرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)

شرح المفردات

النكاح هنا : العقد ، والمس معروف ؛ والمراد به قربان المرأة ، ومن أدب القرآن الكريم التعبير عنه بالملامسة والمماسة ، والقربان والتفشى والإتيان ، والعدّة : الشىء

المعدود ، وعدة المرأة : الأيام التي باقتضائها يحل بها التزوج ، فتمتعوهن : أى أعطوهن المتعة ، وهى قميص وخمار (مانعطى به المرأة رأسها) وملحفة (مانتتحف به من قرنها إلى قدمها - ملاية) سرحوهن : أى أخرجوهن من منازلكن ، سراحا جميلا : أى إخراجا مشتملا على لين الكلام خاليا من الأذى .

المعنى الجملى

أدب الله نبيه بمكارم الأخلاق بقوله : يأيتها النبي اتق الله ، وثنى بتذكيره بحسن معاملة أزواجه بقوله : يأيتها النبي قل لأزواجك ، وثلت بذكر معاملته لأتمته بقوله : يأيتها النبي إنا أرسلناك شاهدا ، وكان كلما ذكر للنبي مكرمة ، وعله أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه ، فأرشد المؤمنين فيما يتعلق بجانبه بقوله : يأيتها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وفيما يتعلق بما تحت أيديهم من الزوجات بقوله : يأيتها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ، وفيما يتعلق بمعاملتهن لنبيهم فقال : لا تدخلوا بيوت النبي الخ ، وقال : يأيتها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

الإيضاح

أى يأيتها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات وتزوجتموهن ثم طلقتموهن من قبل المسيس ، فلا عدة لكم عليهن بأيام يقربصن بها تستوفون عددها ، ولكن اكسوهن كسوة تليق بجاهن إذا خرجن وانتقلن من بيت إلى آخر ، ويختلف ذلك باختلاف البيثة والبلد الذى تعيش فيه المرأة ، وأخرجوهن إخراجا جميلا ، فهيشواهن من المركب والزاد وجميل المعاملة مانعتره به أعينهن ويسرته به أهلهن ؛ ليكون فى ذلك بعض السلوة مما لحقها من أذى بقطع المشرة التي كانت تنتظر دوامها ، وبخروج من بيت كانت ترجو أن يكون هو المقام إلى أن تلاقى ربها ، أو يموت بعلمها .

روى البخارى عن سهل بن سعد وأبى أسيد رضى الله عنهما قالا : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه صلى الله عليه

وسلم بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين (ضرب من الثياب مشهور في ذلك الحين) .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ
وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ
وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً
إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ كِتَابًا يُكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)

شرح المفردات

الأجور هنا : المهور ، وما مَلَكَتْ يَمِينُكَ : أى ما أخذته من اللغانم ، خالصة لك : أى هى خاصة بك ، حرج : أى ضيق ومشقة .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ) أى يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ الْأَزْوَاجَ اللَّاتِي أُعْطِيْتَهُنَّ مَهْرَهُنَّ ، وقد كان مهره عليه السلام لثلاثين عشرة أوقية ونصفاً أى خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمرها عنه النجاشي رحمه الله أربع مائة دينار .

(وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ) أى وَأَحْلَلْنَا لَكَ الْإِمَاءَ اللَّوَاتِي سَبَيْتَهُنَّ فَلَمَّكْتَهُنَّ بِالسَّبَاءِ ، وصرن لك من الفء بفتح الله عليك ، وقد ملك صفية بنت حيى ابن أخطب فى سبى خيبر ، ثم أعتقها ، وجعل صداقها عتقها ، وجؤيرية بنت الحرث

من بنى المصطلق أعتقها ، ثم تزوجها ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية أم إبراهيم ، وكانتتا من السرارى .

(وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك) أى وأحللنا لك بنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك المهاجرات معك دون من لم يهاجرن .

روى السُّدِّي عن أبي صالح عن أم هانئ قالت : « خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذرت إليه ، فعدرتني ؛ ثم أنزل الله تعالى : (إنا أحللنا لك أزواجك - إلى قوله - اللاتي هاجرن معك) قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجر معه ، كنت من الطلقاء » .

(وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) أى وأحللنا لك التمتع بالمرأة المؤمنة التي تهب نفسها لك بلا مهر إن أردت ذلك .

وهذه الإباحة خاصة لك من دون المؤمنين ، فلو وهبت امرأة نفسها لرجل وجب عليه لها مهر مثلها ، كما حكم بذلك رسول الله في برّوع بنت واشق لما فوضت نفسها ومات عنها زوجها فحكم لها بصدّاق مثلها .

والموت والدخول سواء في تقرير مهر المثل ، وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي صلى الله عليه وسلم ، فأما هو فلا يجب عليه للمفوضة شيء لو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صدّاق ولا ولي ولا شهود ، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها .

(قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم) أى قد علم الله ما ينبغي فرضه على المؤمنين في أزواجهم من شروط العقد ، وأنه لا تحل لهم امرأة بلفظ الهبة ، وبدون شهود ، وفي الإماء بشراء أو غيره أن تكون ممن تحل للمالكها كالكتابية بخلاف الوثنية والجنسية - وهذه الجملة معترضة بين ماسلف وما سيأتى :

ثم ذكر العلة في اختصاصه عليه الصلاة والسلام بما تقدم من الأحكام بقوله :
(لكيلا يكون عليك حرج) أى أحطنا لك ذلك حتى لا يكون حرج وضيق
في نكاح من نكحت من الأصناف السالفة .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان ربك غفورا لك ، ولأهل الإيمان بك ،
رحيما بك وبهم أن يعاقبهم على سالف ذنب صدر منهم بعد توبتهم .

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُوْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ
عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ
بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

شرح المفردات

ترجي : أى تؤخر من الإرجاء وهو التأخير ، وقرى ترجى ، وتووى : أى تضم
وتضاجع ، ابتغيت : أى طلبت ، عزلت : أى تجنبت ، أدنى : أى أقرب ، تقرئ :
أى تسرئ .

الإيضاح

(ترجى من تشاء منهم وتووى إليك من تشاء) أى تؤخر مضاجعة من تشاء
من نسائك ، وتضاجع من تشاء ، ولا يجب عليك قسم بينهن ، بل الأمر في ذلك
إليك ، على أنه كان يقسم بينهن .

(ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) أى ومن دعوت إلى فراشك ،
وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق ، فلا ضيق عليك في ذلك .
والخلاصة : إنه لاضير عليه إذا أراد إرجاع من طلقها من قبل .

روى ابن جرير عن أبي رزّين قال : « لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن ، فقلن : يا رسول الله اجعل لنا من مالك ، ومن نفسك ما شئت ، ودعنا كما نحن ؛ فنزلت هذه الآية ، فأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن ، وآوى إليه بعضهن وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة ، وكان يقسم بينهن سواء ، وأرجأ منهن خمساً : أم حبيبة وميمونة ، وسودة وصفية وجويرية ، فكان لا يقسم بينهن ما شاء . » .

ثم بين السبب في الإيواء والإرجاء ، وأنه كان ذلك في مصلحتهن ، فقال : (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتهن كلهن) أى إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لمن اختياراً منك لا وجوباً عليك - فرحن بذلك ، واستبشرن به ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لمن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لمن ، وعدلك بينهن .

(والله يعلم ما فى قلوبكم) من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ، ومن الرضا بما دبر الله فى حقهن من تفويض الأمر إليه صلى الله عليه وسلم .
روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : « كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تمنى فيما تملك ولا أملك »
يعنى القلب ، وزيادة الحب لبعض دون بعض .

وفى هذا حث على تحسين ما فى القلوب ، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله من ذلك ، وفوضه إلى مشيئته ، وبعث على تواطؤ قلوبهن ، والتصافى بينهن ، والتوافق على رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وكان الله عليماً حليماً) أى وكان الله عليماً بالسرائر ، حليماً فلا يعاجل أهل الذنوب بالمقوبة ، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب ، وينيب من ذنوبه من ينيب .

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لم يوجب على نبيه القسَمَ لنسائه وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله — أردف ذلك بذكر ما جازاهم به من تحریم غيرهن عليه ومنعه من طلاقهن بقوله : (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن .)

الإيضاح

تتضمن الآية السكينة حَكِيمين : ألا يتزوج عليه السلام غيرهن ، ولا أن يستبدل بهن غيرهن ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(١) (لا يحل لك النساء من بعد) أى لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع

اللاتى فى عصمتك اليوم كفاء اختيارهن الله ورسوله وحسن صنعهن فى ذلك .

أخرج أبو داود فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس قال :

« لما خيرهن فاخترن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قصره سبحانه عليهن » .

وروى عن ابن عباس أنه قال فى الآية : (حبسه الله تعالى عليهن كما حبسن عليه) .

(٢) (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك)

أى ولا يحل لك أن تستبدل بهن أزواجا غيرهن بأن تطلق واحدة منهن وتتكح

بدها أخرى مهما كانت بارعة فى الحسب والجمال إلا ما ملكت يمينك منهن ، وقد

ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فتمسرها وأولدها إبراهيم ومات رضيعا .

وفى الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها ، وقد روى أبو داود أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى

ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » وعن المغيرة بن شعبه قال : « خطبت امرأة فقال لى النبي

صلى الله عليه وسلم : هل نظرت إليها ؟ قلت لا . قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما .

(وكان الله على كل شيء رقيباً) أى وكان الله حافظاً ومطلماً على كل شيء ،
علماً بالسر والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه .

آية الحجاب وما فيها من أحكام وآداب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى
طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا
وَلَا مُمْتَلِينَ حَدِيثٍ إِنْ ذِكْمُكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ
وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْخَلْقِ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ
حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا
رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ
عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا (٥٤) .

شرح المفردات

إناه : أى نضجه : يقال أى الطعامُ يأتى أتى ؛ أى أدرك وفرغ ، وفيه لغات :
إنى بكسر الهمزة وأنى بفتحها مقصوراً ومدوداً قال الخطيب :

وأخرتِ العشاء إلى سهيل أو الشعري فطال بي الأناء

فانتشروا : أى فنفرقوا ولا تلبثوا ، مستأنسين لحديث : أى مستمعين له ، متاعاً :

أى شيئاً تتمتعون به من ماعون وغيره ، أظهر لقبوكم : أى أكثر تطهراً من الخواطر الشيطانية التي تخطر للرجال في أمر النساء وللنساء في شأن الرجال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال النبى صلى الله عليه وسلم مع أمته بقوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » أردف ذلك ببيان حال المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلم؛ إرشاداً لما يجب عليهم نحوه من الاحترام والتعظيم فى خلوته وفى الملا ، فأبان أنه يجب عدم إزعاجه إذا كان فى الخلوة بقوله : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ » الخ . وأنه يجب إجلاله إذا كان فى الملا بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

روى أن هذه الآية نزلت يوم تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش؛ فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن أنس قال : « لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطمعوا ثم جاسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهياً للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) الآية .

الإيضاح

أدب الله عباده بأداب ينبغى أن يتخلقوا بها لما فيها من الحكم الاجتماعية والمزايا العمرانية فقال:

(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ

تأخرين إناه) أى أيها الذين آمنوا بالله ورسوله: لا تدخلوا بيوت نبي الله إلا أن تُدعوا إلى طعام تطعمونه غير منتظرين إدراكه ونضجه .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا دعيتم إلى وليمة في بيت النبي صلى الله عليه وسلم فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه وانتهى إعداده، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت في شغل عنكم، وقد يلبس ثياب البذلة والعمل فلا يحسن أن تروهن وهنّ على هذه الحال، إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه .

(٢) (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث) أى ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذى أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم الطعام الذى دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا من منزله ولا تمكثوا في البيت لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة .

أخرج عبد بن حميد عن الربيع عن أنس قال : كانوا يتحيمون فيدخلون بيت النبي صلى الله عليه وسلم فيجلسون فيتحدثون ليدرك الطعام فأُنزل الله (يا أيها الذين آمنوا) الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سليمان بن أرقم قال : نزلت هذه في التقلأ ومن ثم قيل هي آية التقلأ .

ثم علل ذلك بقوله :

(إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق) أى إن ذلك اللبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجه، إلى ما فيه من تضيق المنزل على أهله، لكنه كان يستحي من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج. وفي هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان في ذلك أذى لرب البيت، ولو كان البيت غير بيت النبي صلى الله عليه وسلم فالتثقل مذموم في كل مكان، محتمر لدى كل إنسان .

وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما « حسبك في الثقلان أن الله عز وجل لم يحتملهم »

وعلى الجملة فللدعوة إلى المآذب نظم وآداب خاصة أفردت بالتأليف ولا سيما في العصر الحديث .

وجعلوا التحلل منها وترك اتباعها مما لا تسامح فيه .

(٣) (وإذا سألتهم متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) أى وإذا سألتهم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتى لسن لكم بأزواج ، شيئا تمتعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهن ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن .

أخرج البخارى وابن جرير وابن مردويه عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب فى صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزینب بنت جحش فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، وهى مما وافق تنزيها قول عمر كما فى الصحيحين عنه قال : وافقت ربي عز وجل فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب ، وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تملأن عليه فى العيرة « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَبَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » فبزلت كذلك .

ثم بين سبب ما تقدم بقوله :

(ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان والريب ، لأن العين رسول القلب ، فإذا لم تر العين لم يشته القلب ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة

حينئذ أظهر ، وجاء في الأثر « النظر سهم مسموم من سهام إبليس » وقال الشاعر :
 والمرء ما دام ذاعين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر
 يسر مُقلته ما ساء مُهجته لا مرجبا بانتفاع جاء بالضرر
 ولما ذكر ما ينبغى من الآداب حين دخول بيت الرسول أكده بما يحملهم
 على ملاحظته وحسن معاملته بقوله :

(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أى وما كان ينبغى لكم أن تفعلوا
 فى حياته صلى الله عليه وسلم فعلا يتأذى به ويكرهه كاللث والاسثناس بالحدِيث
 الذى كنتم تفعلونه ، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم فى دنياكم وآخرتكم ، فعلينا
 أن نقابله بالحسنى كفاء جليل أعماله .

ولما كان صلى الله عليه وسلم قد قصر عليهن قصرهن الله عليه بقوله .

(ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أى ولا تنكحوا أزواجه أبدا من بعد
 مفارقتهم بموت أو طلاق ، زيادة فى شرفه ، وإظهارا لعظمته وجلاله ، ولأنهن
 أمهات للمؤمنين ، والمرء لا يتزوج أمه .
 ثم بين السبب فيما تقدم بقوله :

(إن ذلكم كان عند الله عظيما) أى إن ذلك الإيذاء وزواج نسائه من بعده
 أمر عظيم وخطب جليل لا يقدر قدره غير الله تعالى .
 ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد على هذا العمل — إلى
 ما فيه من تعظيم شأن الرسول وإيجاب حرمة حيا وميتا .

ثم بالغ فى الوعيد وزاد فى التهديد بقوله :

(إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما) أى إن ما تكنته
 ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم فالله يعلمه إذ لا تخفى عليه خافية « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ
 وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصى البادية والخافية ، والكلام
 وإن كان عاما بظاهره فالمتصودما يتعلق بزواجه عليه السلام .

وسبب نزول الآية أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل : أُنْتَهَى أَنْ تَكَلَّمَ بِنَاتِ أَعْمَامِنَا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ؟ لئن مات محمد لنتزوجن نساءه .

وأخرج جويبر عن ابن عباس « أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقومنَّ هذا المقام بعد يومك هذا ، فقال يارسول الله إنها ابنة عمي ، والله ما قلت منكراً ولا قالت لي ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : قد عرفت ذلك : إنه ليس أحدٌ أُغِيرَ من الله تعالى ، وإنه ليس أحدٌ أُغِيرَ مني ، فمضى ثم قال ما يمنعني من كلام ابنة عمي ؟ لأتزوجنها من بعده ، فأُنزل الله الآية ، فأعقق الرجل رقبة ، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله ، وحج ماشياً لأجل كفته . » وروى أن بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم م سلمة بعد أبي سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ؟ والله لو قد مات لأجلنا السهام على نساءه فنزلت .

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخْوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر أن نساء النبي لا يكلمن إلا من وراء حجاب — أردف ذلك باستثناء بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء ، لما في الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة ، للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيراً .

رؤى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحن يارسول الله فكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت .

الإيضاح

لائم على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الحجاب حين دخول آبائهن ، سواء أكان الأب أبا من النسب أم من الرضاع أو أبائهن نسبا أو رضاعا ، أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو النساء المسلمات القرى منهن والبعدي ، أو ما ملكت أيمانهن من العبيد لما في الاحتجاب عنهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

واخشين الله في السر والعلن فإنه شهيد على كل شيء لا تخفى عليه خافية ، وهو يجازى على العمل خيرا أو شرا .

والخلاصة — إن الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضهم ببعض ، خلوتكم مثل ملككم فاتقوه فيما تأتون وما تدرؤن .

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَامُّوا تَسْلِيمًا (٥٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وجوب احترام النبي حال خلوته بقوله : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ » أورد ذلك بوجوب احترامه في الملأ الأعلى بقوله : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » وفي الملأ الأدنى بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَامُّوا تَسْلِيمًا » .

الإيضاح

(إن الله وملائكته يصلون على النبي) الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار؛ فالمعنى كما قال ابن عباس: إن الله يرسم النبي والملائكة يدعون له ويطلبون له المغفرة .

وقد أخبر الله سبحانه عباده بمنزلة عبده ونبيه في الملأ الأعلى بأنه يثنى عليه لدى ملائكته المقربين ، وأن ملائكته تصلى عليه طالبين له مغفرة من الله .
وقد أمرنا بأن نصلى عليه بقوله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) أى يا أيها الذين آمنوا ادعوا له بالرحمة وأظهروا شرفه بكل ما تصل إليه قدرتكم من حسن متابعتة والانقياد لأمره في كل ما يأمر به ، والصلاة والسلام عليه بالسننكم .

روى البخارى بسنده عن كعب بن مجزة قال : « قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفنا ، فكيف الصلاة ؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . »

روى عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه ، فقلنا إنا لنرى البشرى في وجهك ، فقال : جاءنى جبريل فقال : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول أما يرضيك أن لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا » .

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّبِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا فَتًى فَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا مُّبِينًا (٥٨) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه باحترام نبيه في بيته وفي الملأ — نهى عن إيذاء الله بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإيذاء رسوله بالصاق عيب أو نقص به .

الإيضاح

(إن الذين يؤذون الله) فيرتكبون ما حرمه من الكفر وسائر أنواع المعاصي، ومنهم اليهود الذين قالوا «يَدُ اللَّهِ مَعْلُودَةٌ» والنصارى الذين قالوا «الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» والمشركون الذين قالوا: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

(ورسوله) كالذين قالوا هو شاعر كاهن مجنون إلى نحو ذلك من مقالاتهم، فمن آذاه فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله.

(لعنهم الله في الدنيا والآخرة) أى طردهم من رحمته وأبعدهم من فضله في الدنيا، فجعلهم يتبادون في غيرهم، ويدسّون أنفسهم ويستمرّثون سبل الغواية والضلالة التي تردّهم في النار وبئس القرار، وفي الآخرة حيث يصلون نارا تشوى الوجوه.

(وأعد لهم عذاباً مهيناً) أى وهياً لهم عذاباً يؤلمهم ويجعلهم في مقام الزرابة والاحتقار، والخزى والهوان.

ولما كان من أعظم أذى رسوله أذى من تابعه، بين ذلك بقوله:

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا
بِهَتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا .

شرح المفردات

بغير ما اكتسبوا: أى بغير جنابة يستحقون بها الأذى، والبهتان: الكذب الذى يبهت الشخص لفضاعته، وإمامينا: أى ذنبا واضحا بيننا.

الإيضاح

أى إن الذين ينسبون إلى المؤمنين والمؤمنات ما لم يعملوه وماهم منه براء، اجترحوا كذبا فظيحا، وأتوا أمرا إذا، وذنبا ظاهرا ليس له ما يسوغه أو يقوم مقام العذر له.

روى الضحاك عن ابن عباس قال : أنزلت في عبد الله بن أبي وناس معه قذفوا عائشة رضي الله عنها ؛ فخطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني ؟ » .

وروى أبو هريرة « أنه قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال ذكرك أخاك بما يكره ، قيل أرايت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته » .

وروى عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أي الربا أربي عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال أربي الربا عند الله استحلل عرض امرئ مسلم ، ثم قرأ (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) » .

يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ
مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا (٥٩) لَنْ لَمْ يَنْتَه الْمُتَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ
فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْمُونِينَ
أَئِنَّمَا تُقْفُوا أَخَذُوا وَقَتْلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

شرح المفردات

الجلابيب : واحدها جلباب وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخطار ،
يدنين : أي يرخين ويسدلن ؛ يقال للمرأة إذا زل الثوب عن وجهها أذنى ثوبك على
وجهك ، أذنى : أي أقرب ، أن يعرفن : أي يميزن عن الإساءة ، مرض : أي ضعف

إيمان بانتها بهم حرمت الدين ، والمرجعون : هم اليهود الذين كانوا يلقون أخبار السوء وينشرونها عن سرايا المسلمين وجندهم ، وهو من الإرجاف وهو الزلزال ؛ وصفت بها الأخبار الكاذبة لكونها مرزلة غير ثابتة ، لتغريك بهم ، أى لسلطنتك عليهم ولتحرشنتك بهم ، ملعونين : أى مبعدين من رحمة الله ، ثقفوا : أى وجدوا ، خلوا : أى مضوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من يؤذى مؤمنا فقد احتمل بهتاننا وإثما علينا ، زجرا لهم عن الإيذاء — أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم في الجملة من التستر والتميز بالزى واللباس حتى يتعدوا عن الأذى بقدر المستطاع . روى أنه لما كانت الحرائر والإماء في المدينة يخرجن ليلا لقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والإماء ، وكان في المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا كُلموا في ذلك قالوا حسبناهن إماء — أمر الحرائر أن يخالفن الإماء في الزى والتستر ليمتازن ويهين فلا يطعم فيهن طامع .

الإيضاح

(يأبها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) طلب الله من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات وبخاصة أزواجه وبناته بأن يسدن عليهن الجلابيب إذا خرجن من بيوتهن ليمتازن عن الإماء . روى على بن طلحة عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق ردوسهن بالجلابيب ويدين عليهن واحدة .

وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية (يدنين عليهن من جلابيبهن) خرج نساء الأنصار كأن ردوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسها .

وإجمال ذلك — إن على السلعة إذا خرجت من بيتها حاجة أن تسدل عليها ملابسها بحيث تغطي الجسم والرأس ولا تبدى شيئا من مواضع الفتنة كالرأس والصدر والذراعين ونحوها .
ثم علل ذلك بقوله :

(ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أى ذلك التستر أقرب لمعرفةهن بالعفة فلا يتعرض لهن ولا يلقين مكروها من أهل الريبة احتراما لهن منهم ، فإن التبرجة مطموع فيها منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء كما هو مشاهد في كل عصر ومصر ، ولا سيما في هذا العصر الذى انتشرت فيه الخلاعة وكثر الفسق والفجور .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وربك غفار لما عسى أن يكون قد صدر من الإخلال بالستر ، كثير الرحمة لمن امتثل أمره معهن ، فيثيبه عظيم الثواب ويجزيه الجزاء الأوفى .

ولما كان الأذى إنما يحصل من أهل النفاق ومن على شاكلتهم حذرهم بقوله :

(نئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لغربتك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) أى لئن لم يكف أهل النفاق الذين يستمرئون الكفر ويظهرون الإيمان ، وأهل الزيب الذين غلبتهم شهواتهم وركنوا إلى الخلاعة والفجور ، وأهل الإرجاف في المدينة الذين ينشرون الأخبار المنفقة الكاذبة التى فيها إظهار عورات المؤمنين وإبراز ما استكن من خفاياهم كضعف جنودهم وقلة سلاحهم وكراهم ونحو ذلك مما فى إظهاره مصلحة للعدو وخضد لشوكة المسلمين — لنسطنك عليهم وتدعونك إلى قتالهم وإجلأهم عن البلاد ، فلا يسكنون معك فيها إلا قليلا وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج .

والخلاصة — إن الله سبحانه قد توعد أصنافا ثلاثة من الناس بالقتال والقتل أو النفي من البلاد وهم :

(١) المنافقون الذين يؤذون الله سرا .

(٢) من في قلوبهم مرض فيؤذون المؤمنين باتباع نسايمهم .

(٣) المرجفون الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بنحو قولهم : غلب محمد ، وسيخرج محمد من المدينة ، وسيؤخذ أسيرا إلى نحو ذلك مما يراد به إظهار ضعف المؤمنين وسخط الناس منهم .

ثم بين مآل أمرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة فقال :

(ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) أى فى ذلك الوقت القليل الذى يحاورونك فيه يكونون مطرودين من باب الله وبابك ، وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة ولا يجدون ملجأ ، بل أينما يكونوا يطلبوا ويؤخذوا ويقتلوا تقتيلا .

ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا هو شرعة الله على أشباههم من قبل ، فهو ليس بيدع فيهم كما قال :

(سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى إن سنته تعالى فى المنافقين فى كل زمان إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن يسلط عليهم أهل الإيمان فيذلومهم ويقهروهم ، وهذه السنة لا تغير ولا تبدل ، لا بتناها على الحكمة والمصلحة ، ولا يقدر غيره على تغييرها .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ
السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤)
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ
فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا
إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ
الْعَذَابِ وَالنَّهْمِ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)

شرح المفردات

الساعة : يوم القيامة ، وما يدريك : أى وأى شيء يعلمك وقت قيامها ، سعيرا : أى نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أى ملوكنا ، وكبراءنا : أى علماءنا ، ضعفين من العذاب : أى مثل عذابنا ؛ لأنهم ضلوا وأضلوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال هذه الفئات الثلاث في الدنيا وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون ، عطف على ذلك ذكر حالهم في الآخرة فذكرهم بيوم القيامة وبين ما يكون لهم في هذا اليوم .

الإيضاح

(يسألك الناس عن الساعة) أى يكثر الناس هذا السؤال ، متى تقوم الساعة ؟ فالمشركون يسألون عن ذلك استعجالا لها على طريق التهمك والاستهزاء ؛ والمنافقون يسألون سؤال التعمت العالم بما يجب به الرسول ؛ واليهود يسألون سؤال امتحان واختبار ، ليعلموا أيحيب بمثل ما في التوراة من رد أمرها إلى الله أم يحيب بشيء آخر ؟ فلقنه الله الجواب عن هذا بمجمل رد ذلك إليه تعالى فقال :

(قل إنما علمها عند الله) الذى أحاط علمه بكل شيء ، ولم يطلع عليها ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا .

ثم أكد نفي علمها من أحد غيره بقوله :

(وما يدريك) أى وأى شيء يعلمك وقت قيامها ؟ أى لا يعلمك به أحد أبدا .

ثم أخبر عن قرب وقوعها بقوله :

(لعل الساعة تكون قريبا) أى لعلها توجد وتحقق بعد وقت قريب .

ونحو الآية قوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » وقوله : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ » وقوله : « أَلَمْ يَأْمُرُ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » .
 وفي هذا تهديد للمستعجلين المستهزئين ، وتبكيك للمتعمنين والممتحنين
 ثم بين حال السائلين عنها المنكرين لها بقوله :

(إِنْ لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) أى إن الله أبعده الكافرين به من كل خير ، وأقصاهم من كل رحمة ، وأعد لهم فى الآخرة نارا تتقد وتفسر ليصليهممؤها ، ما كثرين فيها أبدا إلى غير نهاية .

ثم أياهم من وجود ما يدفع عنهم العذاب من الولى والنصير بقوله :
 (لا يجردون وليا ولا نصيرا) أى لا يجردون حينئذ من يستقدمهم من السعير وينجيهم من عذاب الله بشفاعته أو نصرة كما هي الحال فى الدنيا لدى الظلمة ، إذ ربما وجد النصير والشفيع الذى يخلص فيها من الورطات ويدفع المصائب والنكبات .

(يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) أى لا يجردون وليا ولا نصيرا حين تصرف وجوههم فيها من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة إلى أخرى ، ويقولون إذ ذاك على طريق التمنى : ليتنا أطعنا الله فى الدنيا وأطعنا رسوله فيما جاء نابه من أمر ونهى ، فما كنا نبتلى بهذا العذاب ، بل كنا مع أهل الجنة فى الجنة - يا لها حسرة وندامة ما أعظمها وأجلها .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ونحو الآية قوله : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا » وقوله : « رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ » .
 ثم ذكر بعض معاذيرهم بالقائم التبعة على من أضلهم من كبارهم
 وسادتهم بقوله :

(وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أى وقال الكافرون يومئذ وهم فى جهنم : ربنا إنا أطعنا أئمتنا فى الضلالة وكبراءنا فى الشرك فأضلونا السبيل ، وأزلونا عن محجة الحق وطريق الهدى من الإيمان بك والإقرار بوحدايتك والإخلاص لطاعتك فى الدنيا .

وفى هذا إحالة الذنب على غيرهم كما هى عادة المذنب يفعل ذلك وهو يعلم أنه لا يجديه نفعا .

ثم ذكر أنهم يدعون ربهم على طريق التشفى من أوردهم هذا المورد الوخيم ، أن يضاعف لهم العذاب ، إذ كانوا سبب ضلالهم ووقوهم فى بلوهم وإن كانوا يعلمون أن ذلك لا يخلصهم مما هم فيه ، فقالوا :

(ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) أى ربنا عذبهم مثلى عذابنا الذى تعدبنا به : مثلاً على ضلالهم ، ومثلاً على إضلالهم إيانا ، واخرهم خزياً عظيماً واطردهم من رحمتك .

روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو أن أبابكر قال : يا رسول الله علمنى دعاء أدعونه فى صلاتى ، قال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ
مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) .

شرح المفردات

الوجه : هو ذو الجاه والميزلة ومن يكون له من خصال الخير ما به يعرف ولا ينكر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن من يؤذى الله ورسوله يلعنه الله فى الدنيا والآخرة ، ولا شك أن هذا فى الإيذاء الذى يؤدى إلى الكفر ، وقد حصره الله فى النفاق ومرض القلب والإرجاف على المسلمين - أعقب ذلك بإيذاء دون ذلك لا يورث الكفر كهدم الرضا بقسمة النبى صلى الله عليه وسلم للفقهاء ونهى الناس عنه أيضا ، وذكر أن بنى إسرائيل قد آذوا موسى ونسبوا إليه ما ليس فيه فبرأه الله منه لأنه ذو كرامة ومنزلة لديه فلا يلصق به ما هو نقص فيه .

الإيضاح

يأبىها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تؤذوا الرسول بقول يكرهه ولا بفعل لا يحبه ، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبي الله فرموه بالغيب كذبا وباطلا ، فبرأه الله مما قالوه من الكذب والزور بما أظهر من الأدلة على كذبهم ، وقد كان موسى ذا وجاهة وكرامة عند ربه لا يسأله شيئا إلا أعطاه إياه .

ولم يعين لنا الكتاب الكريم ما قالوا فى موسى ، ومن الخير ألا نعيّنه حتى لا يكون ذلك رجما بالغيب دون أن يقوم عليه دليل ، وقد اختلفوا فيه أهو عيب فى بدنه كبرص ونحوه ، أم هو عيب فى خلقه ؟ فقد رووا أن قارون حرّض بغيا على قذفه بنفسها فعصمه الله من كذبها ، وقيل إنهم اتهموه بقتل هرون لما خرج معه إلى الطور ومات هناك ثم استبان لهم بعد أنه مات حتف أنفه .

روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : « قسم رسول الله ذات يوم قسما فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فأحمرّ وجهه ثم قال : رحمة الله على موسى فقد أودى بأكثر من هذا فصبر » .

وزوى أحمد عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « لا يبتغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

وعنه أيضا أنه قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال قسمه ، قال فررت برجلين ، وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أريد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، قال فثبتت حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنك قلت لنا : لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئا وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمر وجه رسول الله وشق عليه ثم قال : دعنا منك لقد أودى موسى بأكثر من هذا فصبر » .

ومن هذا يتبين أن إيذاء موسى كان بالتدح في أعماله وتصرفاته ، لا بالعيب في بدنه كما روى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) .

شرح المفردات

القول السديد : القول الصدق الذي يراد به الوصول إلى الحق ، من قولهم : سدد سهمه إذا وجهه للغرض المرعى ولم يعدل به عن سمتة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل ، أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال التي تكون سببا في الفوز والنجاة في الدار الآخرة ، والقرب من الله سبحانه والخطوة إليه .

الإيضاح

يأينها الذين آمنوا اتقوا الله أن تعصوه فاستحقوا بذلك عقوبته ، وقولوا
في رسول الله والمؤمنين قولاً قاصداً غير جائر ، حتماً غير باطل ، يوفقكم لصالح الأعمال
ويغفر لكم ذنوبكم فلا يعاقبكم عليها .

ومن يطع الله ورسوله فيعمل بما أمره به وينته عما نهاه عنه ويقل السيد من
القول فقد ظفر بالثوبة العظمى والكرامة يوم العرض الأكبر .

والمخالصة — إنه سبحانه أمر المؤمنين بشيئين : الصدق في الأقوال ، والخير
في الأعمال ، وبذلك يكونون قد اتقوا الله وخافوا عقابه ، ثم وعدهم على ذلك بأمرين :
(١) إصلاح الأعمال إذ بتقواه يصلح العمل ، والعمل يرفع صاحبه إلى أعلى
عليين ويجعله يتمتع بالنعيم المقيم في الجنة خالداً فيها أبداً .

(٢) مغفرة الذنوب وستر العيوب والنجاة من العذاب العظيم .

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)
لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣)

شرح المفردات

العرض هنا : النظر إلى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن
عليه المرء من أمر ونهي في شؤون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكليف الدينية ،
وسميت أمانة من قبل أنها حقوق أوجبها الله على المكلفين واثمنهم عليها وأوجب
عليهم تلقيها بالطاعة والالتقياد وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الإخلال بشيء منها ،

فأبين : أى كُنَّ غير مستعدات لها ، وحملها الإنسان : أى كان مستعدا لها ، إنه كان ظلوما : أى كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أى كثير الجهل لعواقب الأمور لما غلب عليه من القوة الشهوية .

المعنى الجملى

بعد أن بين عزَّ اسمه عظم شأن طاعة الله ورسوله ، وأن من يراعها فله الفوز العظيم ، ومن يتركها استحق العذاب الأليم - أردف ذلك بعظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية وأن حصولها عزيز شاق على النفوس ، ثم بيان أن ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام إنما يكون بلا جبر ولا إزام .

الإيضاح

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) أى إنا لم نخلق السموات والأرض على عظم أجرهما وقوة أسرها مستعدة لحمل التكاليف بتلقى الأوامر والنواهي والتبصر فى شئون الدين والدنيا ، ولكن خلقنا الإنسان على ضعف مُنته وصغر جِرمه مستعدا لتلقيها والقيام بأعبائها ، وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية الداعية إلى الغضب فكان ظلوما لغيره ، وركب فيه حب الشهوات والميل إلى عدم التدبر فى عواقب الأمور ، ومن ثم كلفناه بتلك التكاليف لتكسر سورة تلك القوى وتحفف من سلطانها عليه وتكسبت من جماها حتى لا توقعه فى مواقع الردى .

ثم بين عاقبة تلك التكاليف فقال :

(ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى وكان عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة أن يعذب من خانها وأبى الطاعة

والانقياد لها من المناقطين والمناقطات والمشركين والمشركات ، ويقبل توبة المؤمنين
والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا ، لتلافيهم ما فرط منهم من الجهل وعدم التبصر
في العواقب وتداركهم ذلك بالتوبة .

ثم علل قبوله لتوبتهم بقوله :

(وكان الله غفورا رحيمًا) أى وكان الله متارًا لذنوب عباده كثير الرحمة بهم ،

ومن ثم قبل توبة من أناب إليه ورجع إلى حظيرة قدسه وأخلص له العمل وتلافى
ما فرط منه من الزلات ، وأتابه على طاعته بالفوز العظيم .

نسألك اللهم أن تتوب علينا ، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات ، وتثيبنا بالفوز
العظيم فى الجنات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات .

تلييه

ذكر سبحانه فى هذه السورة الكثير من الشؤون الزوجية وكيف تعامل الزوجات ،
وقد رأينا أن نذكر هنا مسألتين كثر الخوض فيهما من أرباب الأديان الأخرى
ومن نابتة المسلمين الذين تعلموا فى مدارسهم وسمعوا كلام المبشرين ، ظنا منهم أنهم
وجدوا مغمرا فى الإسلام وأصابوا هدفا يرمى الدين ، ويجعل معتنقيه مضغة فى أفواه
السامعين ، وأتى لهم ذلك ، ونيهم فكروا وتأملوا ، قبل أن يتكلموا .

أرى العتقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادا

(١) تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم وكثرتهن بينما لم يبح مثل ذلك لأمته .

(٢) إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين .

ومن ثم وجب علينا أن نميط اللثام عن الأسباب التى دعت إلى كل منهما .

أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم

قبل أن ندخل فى تفاصيل البحث نذكر لك أن النبى صلى الله عليه وسلم عاش
مع خديجة خمسًا وعشرين سنة لم يتزوج سواها ، وكانت سنة إذ ذاك ناهزت

الحنسين ، وكان قد تزوجها في شرح شبابه إذ كانت سنه وقتئذ خمسا وعشرين سنة وكانت سنها أربعين وعاشا معا عيشا هنيا شعاره الإخلاص والوفاء ، وكانت من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخروا منه وأحقوا به ضروبا شتى من الأذى ، ولم يشأ أن يتزوج غيرها مع ما كان يبيحه له عرف قومه ، بل ظل وفيها لها حتى توفيت فحزن عليها حزنا شديدا وسمى عام وفاتها عام الحزن ، ولم ينقطع عن ذكرها طوال حياته .

والآن حق علينا أن نذكر لك الأسباب التي حدثت النبي صلى الله عليه وسلم إلى التعدد؛ وهي قسمان : أسباب عامة وأسباب خاصة :

الأسباب العامة

(١) إن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة للرجال والنساء ، ومن التشريع ما هو مشترك بين الرجل والمرأة وما هو خاص بأحدهما ، وكل يحتاج في تلقيه إلى عدد ليس بالقليل لتفرق المرسل إليهم وكثرتهم وقصر زمن حياة الرسول ، وكثرة الأحكام ، وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأم .

ومن الأحكام المتعلقة بالنساء ما تستحي المرأة أن تعرفه من الرجل ، ويستحي الرجل من تبليغه للمرأة ، ألا ترى إلى ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : خذي فرصة ممسكة (قطعة قطن) فتوضي - قالها ثلاثا وهو في كل ذلك يقول : سبحان الله عند إعادتها السؤال ، ثم أعرض عنها بوجهه استحياء ، فأخذتها عائشة وأخبرتها بما يريد النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم وجب أن يتلقى الأحكام الخاصة بالنساء من الرسول صلى الله عليه وسلم عدد كثير منهن ، وهن يبلغن ذلك إلى النساء ، ولا يصلح للتلقي عنه إلا أزواجه ، لأنهن لهن خصائص تمكنهن من معرفة أغراض النبي دون تأفف ولا استحياء ،

يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الحيراء »
يريد عائشة رضى الله عنها، والعرب تقول امرأة حمراء : أى بيضاء .

(٢) إن المصاهرة من أقوى عوامل التآلف والتناصر كما هو مشاهد معروف ،
والدعوة في أول أمرها كانت في حاجة ماسة إلى الإكثار من ذلك ، لاجتذاب
القبائل إليه ومؤازرتهم له ، لبدود عوادي الضالين ، وكف أذاهم عنه ، ومن ثم كان
أكثر زوجاته من قریش سيدة العرب .

(٣) إن المؤمنين كانوا يزورون أن أعظم شرف وأمن قرابة إلى الله تعالى
مصاهرتهم لنبية وقرينهم منه ، فمن ظفر بالمصاهرة فقد أدرك ما يرجو . ألا ترى أن
عمر رضى الله عنه أسف جد الأسف حين فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته
وقال : لا يعبأ بعدها بعمر ، ولم ينكشف عنه الهم حتى روجعت ، وأن علياً كرم الله
وجهه على اتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق النسب وشرف اقترانه
بالزهراء رغب في أن يزوجه أخته أم هانئ بنت أبي طالب ليتضاعف شرفه ولم يمنعها
من ذلك إلا خوفها أن تقصر في القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها .

الأسباب الخاصة بزواج كل واحدة من أمهات المؤمنين

(١) تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة سودة بنت زمعة امرأة
السكران بن عمرو الذى أسلم واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هرباً من اضطهاد
المشركين ومات هناك وأصبحت امرأته بلامعين ، وهى أرمل رجل مات فى سبيل
الدفاع عن الحق ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وفاء لرجل غادر الأهل والأوطان
احتفاظاً بعميدته ، وقد شاركته هذه الزوجة فى أهوال التغريب والبنى ، وحماية لها
من أهلها أن يفتنوها ، لأنها هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم .

(٢) تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وعمرها زهاء خمسين عاماً، وكان زواجه
منها سبباً فى دخول خالد بن الوليد فى دين الله ، وهو المجاهد الكبير والبطل العظيم ،

وهو الذي غلب الروم على أمرهم فيما بعد ، وله في الإسلام أيام عُزْرَتْ مَحْجَلَةٌ - إلى أن زواجها بالنبي صلى الله عليه وسلم يستر لذوي قرباها. وسيلة للعيش قطعوا من جوع وأمنوا من خوف وأثروا بعد فاقة .

(٣) تزوج جويرية وكان أبوها الخارث بن ضرار سيد بني المصطلق بن خزاعة جمع قبل إسلامه جموعا كثيرة لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام فأبوه فخار بهم حتى هزموا ووقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها على سبع أواق من الذهب فلم تر معينا لها غير النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت إليه وأدلت بنسبها وطلبت حرיתה فتذكر النبي صلى الله عليه وسلم ما كان لأهلها من العز والسؤدد وما صاروا إليه بسوء التدبير والعدا ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها من نجوم ثم تزوجها فقال المسجون بعد أن اقتسموا بني المصطلق : إن أصهار رسول الله لا يسترقون ، وأعتقوا من بأيديهم من سبيهم ، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكرا لله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر .

(٤) تزوج السيدة عائشة مكافأة لأبي بكر الصديق ، إذ كان شديد التمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم مولعا بالتقرب منه ، فكان ذلك قرّة عين لها ولأبويها ونفرا لذوي قرباها ، وكان عبد الله بن الزبير (ابن أختها) يفاخر بني هاشم بذلك .

(٥) تزوج أم المؤمنين حفصة بنت عمر مكافأة لزوجها الذي توفى مجروحا في موقعة بدر ؛ وفي تلك الحقبه كانت السيدة رقية بنت الرسول وزوج عثمان قد بوفاة ، فعرض عمر ابنته على عثمان فأعرض عنها رغبة في أم كلثوم بضعة الرسول ليستديم له بذلك الشرف ، فعز هذا على عمر وأفضت نفسه فشكاه إلى أبي بكر فقال له لعلها تزوج من هو خير منه ويتزوج من هي خير منها له (يريد زواج عثمان بأم كلثوم وزواج حفصة بالنبي صلى الله عليه وسلم) .

(٦) تزوج صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، وكانت قد وقعت

في السبي مع عشيرتها ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها رأفة بها إذ ذلت بعد عزة واسترقت وهي السيدة الشريفة عند أهلها ، وتأليفا لقومها حتى يدخلوا في كنف الإسلام وينضوا تحت لوائه .

(٧) تزوج زينب بنت جحش الأسدية ، لإبطال عادة جاهلية كانت متأصلة عند العرب وهي التبني بتنزيل الدعوى منزلة الابن الحقيقي ، وإذ أراد الله إبطال هذه العادة جعل رسوله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة في هذا ، فسعى في تزويج زيد مولاه بعد أن اعتقه بزینب ذات الحسب والمجد فأنت هي وأخوها عبد الله ، وأبت أن تكون زوجا لدعى غير كفاء ، فأنزل الله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » فرضيا بقضاء الله ورسوله غير أنها كانت نافرة من هذا القران مترفة عن زيد ضائقة به ذرعا فأثر فراقها فسأل الرسول الإذن في ذلك فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى في نفسه ما الله مبديه من تزوجه منها بعد زيد وخشى أن يقول الناس : تزوج محمد من زيد ابنة .

ولما لم يبق لزيد فيها شيء من الرغبة ظلتها فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم إبطالا لتلك العادة وهي إعطاء المتبني حكم الابن ، وقد تقدم تفصيل هذا في أثناء تفسير السورة بشيء من البسط والإيضاح .

ومما سلف يستبين لك أن ما يتقوله غير المنصفين من الغربيين من أن النبي صلى الله عليه وسلم خول لنفسه ميزة لم يعطها لأحد من أتباعه - لا وجه له من الصحة فإن زواجه بأمهات المؤمنين كان لأغراض اجتماعية اقتضتها الدعوة ، ودعا إليها حب النعمة ، ولا سيما إذا علم أنه لم يتزوج بكرا قط إلا عائشة ، وأن من أمهات المؤمنين من كن في سن الكهولة أو جاوزتها .

أسباب إباحة تعدد الزوجات في الإسلام

يجدر بذوى الحصافة في الرأي أن ينظروا إلى الأسباب التي دعت أن يبيح الإسلام تعدد الزوجات دون أن ينقموا عليه ذلك ويرموه بالقسوة ، فإن في بعضها ما هو موجب للتعدد لا يجيزه بحسب

وهالك أهم الأسباب :

(١) قد تصاب المرأة أحيانا بمرض مزمن أو مرض معدٍ يجعلها غير قادرة على القيام بالواجبات الزوجية ، فيضطر الرجل إلى أن يقترف ما ينافي الشرف والمروءة ويغضب الله ورسوله إن لم يبيح له أن يتزوج بأخرى .

(٢) دل الاستقراء على أن عدد النساء يربو على عدد الرجال ، لما يعانیه هؤلاء من الأعمال الشاقة التي تنهك القوى وتضوى الأجسام ، ولا سيما الحروب الطاحنة ، فإذا منع التعدد لا يجد بعض النساء أزواجا يحصنونهن ويقومون بشؤونهن ، فيكثر الفساد ويلحق الأسر العار وتعضن الحياة بأنبيائها .

(٣) حضت الشريعة الإسلامية على كثرة النسل لتقوى شوكة الإسلام وتملو سطوته وتنفذ كلمته حتى ترهبه الأعداء وتقيه الأمم المناوئة له ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بإباحة تعدد الزوجات ، لأن المنع منقص إلى تناقص النسل ، ولا أدل على ذلك من أن عقلاء الأمم في الغرب أشفقوا على أممهم لما اعتراها من نقص في النسل بسبب منع التعدد من ناحية وإحجام كثير من شبانهم عن الزواج والاجتراء بالسفاح فرارا من الحقوق الزوجية وأعباء الأولاد من ناحية أخرى ، ومن ثم لجأ كثير من الدول الغربية إلى ارتباط بعضهم ببعض بالحلف والعهود والمواثيق ، طلبا لنيل فائدة التكاثر ، وبذلك تبقى لهم السيادة الدولية .

(٤) دل الإحصاء في كثير من البلاد الغربية على أن حظر تعدد الزوجات أدى إلى كثرة الأولاد غير الشرعيين مما حدا ببعض المفكرين إلى النظر في توريثهم.

(٥) كان من نتائج منع التعدد انتشار كثير من الأمراض الفتاكة التي أصابت الرجال والنساء والأطفال حتى عجز الطب عن مكافحتها وتقلل الداء وعز الدواء، مما جعل بعض البلاد تسن القوانين التي تمنع عقد الزواج إلا بعد إحضار صك رسمي بخلو الزوجين من الأمراض المعدية والأمراض التي تجعل النسل ضعيفا ضاويا لا يستطيع الكفاح في الحياة .

ما حوته السورة الكريمة من أغراض ومقاصد

- (١) الأمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين .
- (٢) وجوب اتباع ما ينزل به الوحي مع ضرب المثل لذلك .
- (٣) إبطال المادة الجاهلية وهي إعطاء المتبني حكم الابن وبيان أن الدين منه براء .
- (٤) إبطال التوريث بالخلف والتوريث بالهجرة ، وإرجاع التوريث إلى الرحم والقرابة .
- (٥) ذكر النعمة التي أنعم بها عليهم في وقعة الخندق بعد أن اشتد بهم الخطب .
- (٦) تحيير النبي نساءه بين شيئين : الفراق إذا أردن زينة الحياة الدنيا والبقاء معه إذا أحببن الله ورسوله والدار الآخرة .
- (٧) التشديد عليهن بمضاعفة العذاب إذا ارتكبن الفواحش ، ونهيهن عن الخضوع في القول وأمرهن بالقرار في البيوت ، وتعليمهن كتاب الله وسنة رسوله ، ونهيهن عن التبرج .

- (٨) قصة زينب بنت جحش وزيد مولى رسوله صلى الله عليه وسلم .
- (٩) ما أحل لثيبه من النساء وتحريم الزواج عليه بعد ذلك .
- (١٠) النهى عن إيذاء المؤمنين للنبي صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا بيته اطعام ونحوه .
- (١١) الأمر بكلام أمهات المؤمنين من وراء حجاب إذا طلب منهن شيء إلا الآباء والأبناء والأرقاء .
- (١٢) أمرهن بإرخاء الجلباب إذا خرجن لقضاء حاجة .
- (١٣) تهديد المنافقين وضعاف الإيمان والمرجفين فى المدينة .
- (١٤) سؤال المشركين عن الساعة متى هى ؟
- (١٥) النهى عن إيذاء النبي حتى لا يكونوا كبنى إسرائيل الذين آذوا موسى .

سورة سبأ

هي مكية إلا الآية السادسة منها فمدنية ، وعدد آياتها أربع وخمسون نزلت بعد لقمان .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إن الصفات التي أجريت على الله في مفتتحها تشاكل الصفات التي نسبت إليه في مآخيم السورة السابقة .

(٢) إنه في السورة السابقة قد ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاء ، وهنا حكى عنهم إنكارها صريحا وطعنهم ، على من يقول بالبعث ، وقال هنا ما لم يقله هناك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)

شرح المفردات

الحمد : هو الثناء على الله بما هو أهله ، والحكيم : الذي أحكم أمر الدارين ودرره على حسب ما تقتضيه الحكمة ، والخبير : هو الذي يعلم بواطن الأمور وخوافيها ، يلبج في الأرض : أي يدخل فيها ، ويعرج : أي يصعد .

الإيضاح

(الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض) أي الحمد الكامل للمعبود للملك لجميع ما في السموات وما في الأرض دون كل ما يعبدونه ودون كل شيء سواه إذ لا مالك شيء من ذلك غيره .

والخلاصة — إن له عز وجل جميع ما في السموات وما في الأرض خلقا وملكا وتصرفا بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة .

ولما بين اختصاصه بالحمد في الدنيا أعقبه ببيان أن له وحده الحمد في الآخرة فقال:

(وله الحمد في الآخرة) أى وله الحمد في الآخرة خالصا دون سواه على ما أنعم به فيها كما حكى عن أهلها من قولهم: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » وقولهم: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ . »

(وهو الحكيم الخبير) أى وهو المدبّر لشئون خلقه على ما تقتضيه الحكمة، الخبير ببواطن الأمور ومكنوناتها .

ثم فصل بعض ما يحيط به علمه من الأمور التي نيطت بها مصالح عباده الدنيوية والأخروية فقال :

(يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها) أى يعلم ما يدخل في الأرض كالغيث ينفذ في موضع وينبع في آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات ، وما يخرج منها كالحيوان والنبات والغازات وماء العيون والمعادن التي مضى عليها آلاف السنين ، ومخلفات الأمم ومصنوعاتهم كمخلفات المصريين القدماء ونقوش آشور وبابل ومجائب أهل سبأ وصناعاتهم مما استخرجه علماء العاديات من الأوربيين في القرن الماضي والعصر الحاضر ، ولا يزالون كل يوم يكشفون حديدًا يدل على أن الشرق كان ذا مدنية وحضارة لا يذانيها أعظم ما يوجد في الغرب الآن في أرق ممالكة .

(وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والأرزاق والمطر والصواعق .

(وما يخرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والأبحر والسخان والطاقرات

والمطاود الجوية . (وما يزلزل الأرض) أى يزلزلها ويحركها .

(وهو الرحيم الغفور) أى وهو مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ، رحيم بعباده

فلا يماجل بالعقوبة ، غفور لذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمٌ
 الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ
 مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا
 مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا
 الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
 الْحَمِيدِ (٦)

شرح المفردات

لا يعزب عنه : أى لا يفوته علمه ، مقدار ذرة : أى مقدار أصغر عملة ، والكتاب
 المبين : اللوح المحفوظ ، رزق كريم : أى حسن لا تعب فيه ولا من عليه ، معاجزين :
 أى مسابقين يظنون أنهم يفوتوننا فلا تقدر عليهم ، رجز : أى عذاب شديد ، العزيز
 أى الذى يغلب ولا يُغلب ، الحميد : أى المحمود فى جميع شئونه ، وصراطه : هو
 التوحيد والتقوى .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن له الحمد فى الآخرة على ما أسدى إلى عباده من النعم ،
 أردف ذلك ببيان أن كثيرا منهم ينكروها أشد الإنكار ويستهزئ بمن يثبتها
 ويمتقد أنها ستكون ، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظنا منهم أن
 هذه خيالات بل أضغاث أحلام ، وقد ذكر أن مجيئها ضربة لازب ، لتجرى كل
 نفس بما كسبت من خير أو شر ، ثم أعقب هذا ببيان أن الناس فريقان : مؤمن

بآيات ربه يرى أنها الحق وأنها تهدي إلى الصراط المستقيم ، ومعاند جاحد بها يسعى في إبطالها ، ومآل أمره العذاب الأليم على ما دسى به نفسه من قبيح الخلال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) أى وقال الذين ستروا ما أرشدتهم إليه عقولهم من البراهين الدالة على قيام الساعة : إنه لا رجعة بعد هذه الدنيا ولا بعث ولا حساب ، إن هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبيع ، وما نحن بمبعوثين . وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم مؤكدا لهم بطلان ما يدعون .

(قل بلى وربي لتأتينكم) أى قل لهم إنها وربي لأتية لا ريب فيها . وهذه الآية إحدى آيات ثلاث أمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد حين أنكره من أنكره من أهل الشرك والعدا ، فإحداهن في سورة يونس « وَيَسْتَفْتُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَخَلْقٌ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » وتأتيها في سورة التغابن « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا . قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » وثالثتها ما هنا . ثم وصف المولى نفسه بكامل العلم وعظيم الإحاطة بالموجودات مما يؤكد صحة البعث فقال :

(عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) أى إن وقت مجيئها لا يعلمه سوى علام الغيوب الذى لا يغيب عن علمه شيء في السموات ولا في الأرض من ذرة فما دونها ولا ما فوقها ، أين كانت وأين ذهبت ، فكل ذلك محفوظ في كتاب مبين ، فالعظام وإن تلاشت ، واللحوم وإن تفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، فيعيدها كما بدأها أول مرة وهو بكل شيء عليم . ثم بين الحكمة في إعادة الأجسام وقيام الساعة بقوله :

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) أى أثبت ذلك فى الكتاب المبين ليثيب الذين آمنوا بالله وعملوا بما أمرهم الله ورسوله به واتمهرو عما نهاهم عنه ، وأولئك لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم ، وعيش هنىء فى الجنة لا تعب فيه ولا منّ عليه .

والخلاصة — إن الحكمة تقتضى وجودها وليس هناك مانع منها ، فالعلم المحيط بالغيب موجود ، فقد وجد المقتضى لوجودها وارتفع المانع من إثباتها .

(والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) أى وليجزى الذين سعوا فى إبطال أدلتنا وحججنا عناداً منهم وكفراً ، وظنوا أنهم يسبقوننا بأنفسهم فلا تقدر عليهم بشديد العذاب ، لما اجترحوا من السيئات ودسوا به أنفسهم من قبيح الأعمال .

وإجمال ذلك — إن الساعة آتية لا محالة ، لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين .

ونحو الآية قوله : « أم تجمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالفُسدِينَ فى الأرضِ أم تجمل المتقين كالفُجَّارِ » وقوله : « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » .

ثم استشهد باعتبار أولى العلم ممن آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما بصحة ما أنزل إليك ليرد به على أولئك الجهلة الساعين فى الآيات الذين أنكروا الساعة فقال :

(ويرى الذين أتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) أى وقال الجهلة المنكرون للبعث والخسر والحساب — إنه لارجعة بعد هذه الدنيا ؛ وقال العالمون من أهل الكتاب ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يأتى من بعدهم من أمته : إن الذى أنزل إليك من ربك مثبتاً لقيام الساعة

ومجازاة كل عامل بما عمل من خير أو شره هو الحق الذي لا شك فيه وأنه هو الذي يرشد من اتبعه وعمل به إلى سبيل الله الذي لا يغال ولا يمانع وهو القاهر لكل شيء والغالب له ، وهو المحمود على جميع أقواله وأفعاله وما أنزله من شرع ودين .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُوكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ
كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ
حِجَةٌ ، بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨)
أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنْ نَشَاءُ
نُخَسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ
لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ (٩) .

شرح المفردات

تمزيق الشيء : تقطيع أوصاله وجعله قطعاً قطعاً ، يقال ثوب مزيق وممزوق ومتمزق وممزق ، ومنه قوله :

إذا كنت ما كولا فكن خيراً كل وإلا فأدركني ولما أمزق
والافتراء : اختلاق الكذب ، والجننة : الجنون وزوال العقل ، كسفا : قطعاً واحداً
كسفة ، منيب : أى راجع إلى ربه مطيع له .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم ما قالوا وأنكده كل التأكيدي ، ثم ذكر ما يكون إذا ذلك من جزاء المؤمن على ما عمل من صالح الأعمال وجزاء الساعى في تكذيب الآيات بالتحذير على السبب لقاء ما دسى به نفسه من

اجتراح المعاصي وفاسد المعتقدات - أردف ذلك بذكر مقال للكافرين ذكروه تهكما واستهزاء، ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد لعلمهم يرجعون عن عنادهم ويشوبون إلى رشادهم.

الإيضاح

(وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد؟) أي وقال قريش بعضهم لبعض تعجبا واستهزاء وتهكما وإنكارا: هل سمعتم برجل يقول: إنا إذا تقطعت أوصالنا، وتفرقت أبداننا، وبليت عظامنا، نرجع كرة أخرى أحياء كما كنا ونحاسب على أعمالنا، ثم شاب على الإحسان إحسانا ونجزى على اجتراح الآثام آلاما، ونارا تلظى تشوى الوجوه والأجسام.

وخلاصة ذلك - إنه يقول إذا أكلتم الأرض وصرتم رفاتا وعظاما وقطعتكم السباع والطيور ستحيون وتبعثون ثم تحاسبون على ما فرط منكم من صالح العمل وسيئته؛ ثم قسموا حاله في الإخبار بهذا في نظرم قسمين فقالوا:

(أفترى على الله كذبا أم به جنة؟) أي إن أمره في هذا دائر بين أمرين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه أوحى إليه ذلك، أو أنه لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون.

وإجمال ذلك - إنه إما أن يكون مفتريا على الله وإما أن يكون مجنونا.

فرد الله عليهم مقالهم وأثبت لهم ما هو أشد وأنكى فقال:

(بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل إن محمدا هو البر الرشيد الذي جاء بالحق وإنهم هم الكذبة الجهلة الأغبياء الذين بلغوا الغاية في اختلال العقل وأوغلوا في الضلال، وبعثوا عن الإدراك والفهم، وليس هذا إلا الجنون بعينه، وسيؤدى ذلك بهم إلى

العذاب ، إذ هم قد أنكروا حكمة الله في خلق العالم وكذبوه في وعده ووعيده ،
وتعرضوا لسيخطه .

ثم ذكروهم بما يعاينون مما يدل على كمال قدرته ، وفيه تنبيه لهم إلى ما يحتمل أن
يقع لهم من القوارع التي تهلكهم ، وتهديد على ما اجتروا من السيئات فقال :

(أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف
بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) أى أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد
الجاحدون للبعث بعد الممات ، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسماي محيطة بهم
من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيانهم وعن شمائلهم ، فيرتدعوا عن جهلهم ،
ويزدجروا عن تكذيبهم حذر أن تأمر الأرض فتخسف بهم أو تأمر السماء فتسقط
عليهم كسفا ، فإنا إن نشأ أن نعمل ذلك بهم فعملنا لكننا تؤخره لعلنا وعفونا .

وإجمال ذلك — إنه تعالى ذكروهم بأظهر شيء لديهم يعاينونه حيثما وجدوا ،
ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا ، وفيه الدليل على قدرته على البعث والإحياء ،
فإن من قدر على خلق تلك الأجرام العظام لاتعجزه إعادة الأجسام ، فهي إذا قيست
بها كانت كأنها لا شيء كما قال : « أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ
عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » .

وفي هذا ما لا يخفى من التنبيه إلى مزيد جهلهم المشار إليه بالضلال البعيد .

ثم ذكر ما هو كالعلة في الحث على الاستدلال بذلك ، ليزيح إنكارهم
بالبعث فقال :

(إن في ذلك لآية لكل عبد متنب) أى إن في النظر إلى خلق السموات
والأرض لدلالة لكل عبد قطن متنب إلى ربه على كمال قدرتنا على بعث الأجساد
ووقوع المعاد ، لأن من قدر على خلق هذه السموات على ارتفاعها واتساعها ، وعلى
هذه الأرض على انخفاضها وطولها وعرضها — قادر على إعادة الأجسام ، ونشر

الريم من العظام ، كما قال « تَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ
الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ اجْعَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

شرح المفردات

فضلا : أى نعمة وإحسانا ، أَوِّبِي مَعَهُ : أى رَجِّعِي مَعَهُ التَّسْبِيحَ وَرَدِّدِيهِ ،
وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ : أى جعلناه فى يده كالشَّمْعِ وَالْعَجِينِ يَصْرِفُهُ كَمَا يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ نَارٍ
وَلَا طَرِّقَ ، وَسَابِغَاتٍ مِنَ السَّبُوغِ وَهُوَ التَّمَامُ وَالسَّكَالُ : أى دَرُوعًا كَامِلَاتٍ ، قَدَّرَ
أى اقْتَصَدَ ، وَالسَّرْدُ : النَّسِجُ : أى اجْعَلِ النَّسِجَ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى خلق السموات والأرض آية لكل من أناب إلى
الله ورجع إليه - أورد ذلك بذكر بعض من أنابوا إلى ربهم فأنعم عليهم بما آتاهم
من الفضل المبين ، ومن جملتهم داود عليه السلام فقد جمع الله له النبوة والملك
والجنود ذوى العدد والعدد ومنحه الصوت الرخيم ، فكان إذا سبح تسبىح معه
الجبال الراسيات ، وتقف له الطيور السارحات ، وعلمه سرد الدروع لتكون عُدَّةً
للقاتلين وردًّا للمجاهدين .

الإيضاح

(ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير) أى ولقد أعطينا داود منا نعمًا ومننا قفلنا للجبال وللطير برحمتي معه التسبيح وردديه إذا سبح ، وذلك بأن تحمله عليه إذا تأمل مجائبها فهي له مذكرات كما يذكر المسيح مسبحًا آخر .
 (وأنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد) أى وجعلنا الحديد في يده ليتمكن من تصويره وتصريفه كما يشاء ، فيعمل منه الدروع والآلات الحرب على أتم النظم وأحكم الأوضاع ، فيجعل حلقاتها على قدر الحاجة فلا هي بالضيقة فتضعف ولا تؤدى وظيفتها لدى الكسر والقر والشد والجذب ، ولا هي بالواسعة التي ربما ينال صاحبها من خلالها الأذى ، وهنا تعليم من الله له في إجادة نسج الدروع .
 قال قتادة : إن داود أول من عملها حلقة وكانت قبل ذلك صفائح فكانت ثقالا .
 (واعملوا صالحا) أى واعمل يا داود أنت وآلِكَ بطاعة الله فأجازيكم كفاء ما عملتم .

ثم علل هذا الأمر بقوله :

(إني بما تعملون بصير) أى إني مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم لا يخفى على شيء منها .
 وفي هذا ما لا يخفى من التنبيه والإغراء بإصلاح العمل والإخلاص فيه .

وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحُ عُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ
 وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا
 لَنَذِقْنَهُ مِنَ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَائِيلِ

وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ
مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ (١٣) .

شرح المفردات

غدوؤها شهر : أى جريانها بالغداة مسيرة شهر ، ورواحها شهر : أى جريانها
بالعشى مسيرة شهر ، وأسلنا : أى أذبنا ، والقطر : النحاس المذاب ، ومن يرغ منهم
عن أمرنا : أى ومن يعدل عن طاعة سليمان ، عذاب السعير : أى العذاب الشديد
فى الدنيا ، والمحاريب واحدها محراب : وهو كل موضع مرتفع قال الشاعر :

وماذا عليه أن ذكرت أوانسا كغزلان رمل فى محاريب أقيال

والتماثيل : الصور ، والجفان واحدها جفنة : وهى القصة ، والجوابى واحدها جابية :
وهى الحوض الكبير ، وقدرور : واحدها قدر ، وراسيات : أى ثابتات على أنافها
لا تتحرك ولا تنزل عن أماكنها لعظمتها ، الشكور : البازل وسمه فى الشكر قد شغل
قلبه وإسانه وجوارحه به اعترافا واعتقادا وعملا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما من به على داود من النبوة والملك - أردف ذلك بذكر
ما تفضل به على ابنه سليمان من تسخير الريح ، فتجرى من الغداة إلى منتصف النهار
مسيرة شهر ، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر ، وإذابة النحاس على نحو ما كان
لداود من إلانة الحديد وتسخير الجن عملة بين يديه يعملون له شتى المصنوعات من
قصور شامخات وصور من نحاس وجفان كبيرة كالأحواض وقدرور لا تتحرك لعظمتها .
إذ كل منهما أناب إلى ربه وجلال يفكره فى ملكوت السموات والأرض
وكان من المؤمنين الخبيثين الذين هم على ربهم يتوكلون .

الإيضاح

عدّد سبحانه ما أنعم به على سليمان عليه السلام وهو أمور :

(١) (وسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) أى وسخرنا لسليمان الريح تجرى بالغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ، وتجرى بالرواح من منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر .

قال قتادة تفسيرا للآية : كانت الريح تقطع به عليه السلام من الغدو إلى الزوال مسيرة شهر ومن الزوال إلى الغروب مسيرة شهر. وقال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدى بها، ويذهب راثحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كذلك .

(٢) (وأسلنا له عين القطر) أى وأذبنا له النحاس كما ألبنا الحديد لداود ، فكان يعمل منه أعماله وهو بارد دون حاجة إلى نار ، وقد سال من معدنه فنبع نبوع الماء من الينبوع فلذلك سماه عينا .

(٣) (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) أى وسخرنا له من الجن من يبنى له البنائات وغيرها بقدره ربه وتسخيره ، ومن يخرج منهم عن طاعته يذقه عذابا أليما فى الدنيا .

وإننا لنوقن بصدق ما جاء به القرآن من استخدام سليمان للجن ولا نعلم كيف كان يستخدمهم فى أعماله ، ولكن نشاهد آثار استخدامه لهم من المباني الشاهقة والقصور العظيمة والتماثيل البديعة التى فصلها سبحانه بقوله :

(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) أى يعملون له ما يشاء من القصور الشاهقة والصور المختلفة من النحاس والزجاج والرخام ونحوها ، والجفان الكبيرة التى تكفى لعشرات الناس ، قال الأعشى يمدح آل جفنة من الغساسنة بالشام :

نفى الذمَّ عن آلِ أُحَمَّاقِ جَفَنَةَ كجايبة الشيخ العراقي تَهْفُوقِ
القدور الثوابت في أما كتبها التي لاتتحرك ولا تتحول لكبرها وعظمتها .

(اعملوا آل داود شكرا) أى وقلنا لهم : اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكرا له
على نعمه التي أنعمها عليكم في الدين والدنيا . روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سعد
المنبر فقلنا هذه الآية ثم قال « ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود ،
فقلنا ماهن ؟ فقال العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله
في السرِّ والعلانية » أخرجه الترمذى .

والشكر كما يكون بالفعل يكون بالقول ويكون بالنية كما قال :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ثم ذكر السبب في طلب الشكر منهم فقال :

(وقليل من عبادى الشكور) أى وقليل من عبادى من يطيعنى شكرا
لنعمتى ، فيصرف ما أنعمت به عليه فيما يرضينى ، وقد قيل : الشكور من يرى
عجزه عن الشكر .

ونحو الآية قوله : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) وعن
عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الله حتى تقطر
قدماه ، فقلت له : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال
أفلا أكون عبدا شكورا » أخرجه مسلم في صحيحه .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنْ عَذَابِهِ ، فَلَمَّا خُرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنَّهُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ
مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) .

شرح المفردات

قضينا عليه : أى حكمنا عليه ، دابة الأرض : هى الأرضة (بفتحات) التى تأكل الخشب ونحوها ، والنسأة : العصا ؛ من نسأت البعير إذا طردته ، قال الشاعر :
ضربنا بمنسأة وجهه فصار بذلك مهينا ذليلا
لأنها يطرد بها ، وخر : سقط ، وما لبثوا : أى ما أقاموا ، فى العذاب المهين : أى فى الأعمال الشاقة التى كلفوا بها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه عظمة سليمان وتسخييره الريح والجن - أردف ذلك ببيان أنه لم ينج أحد من الموت بل قضى عليه به ، تقبيها للخلق إلى أن الموت لا بد منه ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة .

الإيضاح

إنا لما قضينا قضاءنا على سليمان بالموت فمات لم يدل الجن على موته إلا الأرضة التى وقعت فى عصاه من داخلها ؛ إذ بينا هو متكى عليها وقد وافاه القضاء المحتوم انكسرت فسقط على الأرض واستبان للجن أنهم لا يعملون الغيب كما كانوا يزعمون ، ولو علموه لما أقاموا فى الأعمال الشاقة التى كانوا يعملونها ظانين أنه حى . والكتاب الكريم لم يحدد المدة التى قضاها سليمان وهو متكى على عصاه حتى علم الجن بموته ، وقد روى القصاصون أنها كانت سنة ، ومثل هذا لا ينبغي الركون إليه ، فليس من الجائز أن خدع سليمان لا يتنبهون إلى القيام بواجباته المعيشية من ماكل ومشرب وملبس ونحوها يوما كاملا دون أن يجادثوه فى ذلك ويطلبوا إليه القيام بخدمته ، فالعقول أن الأرضة بدأت العصا وسليمان لم يتفبه لذلك ، وبينما

هو متوكئ عليها حانت منيته ، وكانت الأرضة قد فعلت فعلها في العصا فانكسرت
نحفر على الأرض فعلت الجن كذبها ، إذ كانت تدعى أنها تعلم الغيب ، إذ لو علمته
مالبتت ترهق نفسها في شاق الأعمال التي كلفت بها .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ
رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ
وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ
يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) .

شرح المفردات

سبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ؛ والمراد به هنا القبيلة ، والمسكن :
موضع السكنى وهو مأرب (كمنزل) من بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة
أيام ، آية : أى علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد الغرائب
والعجائب ، جنتان : أى بستانان ، فأعرضوا : أى انصرفوا عن شكر هذه النعم ،
والعرم : واحدها عرمة ؛ وهى الحجارة المركومة كخزان أسوان فى وادى النيل لحجز
المياه جنوبى النيل ، وكانت له ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، والمطر يجتمع أمام
ذلك السد ، فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل ، والأكل :
التمر ، والخمط : كل شجرة مرة ذات شوك ، والأثل : الطرفاء ؛ وهو المعروف فى مصر
(بالأثل) والسدر : شجر النبق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جل وعلا حال الشاكرين لنعمة المنيبين إليه - أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بنعمه ، المعرضين عن ذكره وشكره من عظيم العقاب ، موعظة لقريش وتحذيراً لمن يكفر بالنعم ويعرض عن المنعم .

الإيضاح

(لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) أى لقد كان أهل هذا الحى من ملوك اليمن في نعمة عظيمة وسعة في الرزق ، وكانت لهم حدائق غناء وبساتين فيحاء عن يمين الوادى وشماله ، وقد أرسل الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق ربهم ويشكروه بتوحيده وعبادته كغناء ما أنعم عليهم بهذه المنن ، وأحسن إليهم بتلك النعم ، فكانوا كذلك إلى حين ، ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل عليهم ففترقوا في البلاد شذرَ مذرَ ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حط وأثل وشيء من سدر قليل) أى فأعرضوا عن طاعة ربهم وصدوا عن اتباع ما دعتهم إليه الرسل فأرسل الله عليهم سيلاً كثيراً ملاً الوادى وكسر السد وخربه وذهب بالجنان والبساتين وأهلك الحرث والنسل ، ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت في البلاد ، وبدلوا من تلك الجنان والبساتين التى سبق وصفها بساتين ليس فيها إلا بعض أشجار لا يؤبه بها كالخط والأثل وقليل من النبق .
ثم بين سبب ذلك العقاب بقوله :

(ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) أى وجزيناهم ذلك الجزاء الفظيع من جراء كفرهم بربهم وجحودهم بنعمه ، وتكذيبهم بالحق ، وعدوهم

عنه إلى الباطل ، وما نجازى مثل هذا الجزاء الشديد المستأصل إلا عظيم الكفران
للنعم ، الجحود للفضل والمنن .

سد مأرب — سد العرم

وصف هذا السد مؤرخو العرب في عصور مختلفة . وأصدق من أجاد وصفه
الهمداني في كتابه (وصف جزيرة العرب) قال : في الجنوب الغربي من مأرب
سلسلة جبال هي شعاب من جبل السراة الشهير ، تمتد مئات الأميال نحو الشرق
الشمالى ، وبين هذه الجبال أودية تصب في واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقى
وهو أعظم أودية الشرق ، وشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت
فيها السيول وانحدرت حتى تنتهى أخيرا إلى وادى أذنة ، وهو يعلو سطح البحر
بنحو ١١٠٠ متر ، وتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالى حتى تنتهى إلى مكان قبل
مأرب بثلاث ساعات ، هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلن ، أحدهما بلن الأيمن
وثانيهما بلن الأيسر والمسافة بينهما ستمائة ذراع يحرف السيل الأكبر بينهما من
الغرب الجنوبى إلى الشرق الشمالى في وادى أذنة .

وقد اختار السبئيون المضيق بين جبلى بلن وبنوا في عرضه سورا عظيما عرف
بسد مأرب أو بسد العرم ، لأنه لا أنهار عندهم ، وإنما يستقى أهلها من السيول التى
تتجمع من المطر ، وقد كان يذهب أكثرها في الرمال ، فإذا انقضى فصل المطر ظمئوا
وجفت أغراسهم ، وربما فاض المطر فسطا على المدن والقرى فزلهم منه أذى كثير .

وبين المضيق ومدينة مأرب متسع من الأرض تبلغ مساحة ما يحيط به من
الأرض من سفوح وجبال نحو ٣٠٠٠ ميل مربع كانت صحراء جرداء قاحلة فأصبحت
بعد تدبير المياه بالسد غياضا وبساتين على سفحى الجبلين وهى المعبر عنها بالجنة
الجنة اليمنى والجنة اليسرى اهـ يتصرف .

وقد ظل الباحثون والمتقنون في العصر الحديث في شك من أمر هذا السد حتى

تمكن المستعرب الفرنسي أرنو من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣ وشاهد آثاره ورسم له مصورا نشر في المجلة الفرنسية سنة ١٨٧٤ وزار مأرب بعهده هاليفي وغلازني وواقفاه فيما قال وصادقاه فيما وصف وهو يطابق من وجوه كثيرة ما قاله الهمداني في كتابه ثم عثروا فيما بعد على نقوش كتابية في خرائب السد وغيرها تحققت بها صدق خبره .

قال الأصفهاني : إن السد تهدم قبل الإسلام بنحو أربعين سنة ، وقال ياقوت : إنه هدم في نحو القرن السادس للميلاد ، وقال ابن خلدون : إنه تهدم في القرن الخامس للميلاد .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَخَادِيثَ وَمَزَقْنَاَهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) .

شرح المفردات

القرى التي بارك فيها : هي قرى الشام ، قرى ظاهرة : أي مرتفعة على الآكام وهي أصح القرى ، وقدرنا فيها السير : أي كانت القرى على مقادير للراحل ، فمن سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى حين الظهيرة ، ومن سار من بعد الظهر وصل إلى أخرى حين الغروب ، فلا يحتاج إلى حمل زاد ولا مبيت في أرض خالية ولا يخاف من عدو ولا سبع ، آمين : أي من كل ما تكرهون ، وظلموا أنفسهم لأنهم بطروا النعمة ، والأحاديث : واحدها أحدوثة وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب ، ومزقناهم كل ممزق : أي وفرقناهم كل تفريق ، الصبار : كثير الصبر

عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى مشاق الطاعات ، والشكور : أى كثير الشكران على النعم .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه ما أوتوا من النعم فى مساكنهم ثم كفرانهم بها وما جوزوا به من الخراب والدمار - قص علينا ما أعطوه من النعم فى مسائرهم ومتاجرهم ، ثم جحودهم بها ثم ما حاق بهم بسبب ذلك .

الإيضاح

(وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة) أى وجعلنا بين قرام وقرى الشام التى باركنا فيها بالتوسعة على أهلها قرى متواصلة يظهر بعضها لبعض ، لأنها مبنية على آكام عالية .

(وقدرنا فيها السير) أى وجعلنا بين بعضها وبعض مقادير متناسبة بحيث يقبل الغادى فى قرية ، ويبيت الرأىخ فى أخرى إلى أن يصل إلى الشام وهو لا يحمل معه زادا ولا ماء .

(سيروا فيها ليلالى وأياما آمنين) أى وقلنا لهم سيروا فى هذه القرى التى بين قرام وقرى الشام التى باركنا فيها ليلالى وأياما وأنتم آمنون لا تخشون جوعا ولا عطشا ولا عدواً يبطش بكم ، بل تغدون فتقبلون ، وتروحون فتبیتون فى قرية ذات جنان ونهر .

وخلاصة هذا - إنهم كانوا فى نعمة وغبطة وعيش هنىء رغد فى بلاد مرضية وأما كن آمنة وقرى متواصلة ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ؛ فالمسافر لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمارا ، فهو يقبل فى قرية ويبيت فى أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم .

ثم ذكر أنهم بطروا. وملّوا تلك النعم وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير كما فعل بنو إسرائيل فطلبوا أن يُفصل بين القرى بمفاوز وقفار، ليُظهر القادرون منهم الأزواد والرواحل تكبراً وغرّاً على العاجزين كما حكى سبحانه عنهم بقوله :

(تقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) فأجعل بيننا وبين الشام فلات ومفاوز، لتركب فيها الرواحل، وتزود معنا فيها الأزواد، فأجاب الله طلبهم وعاقبهم على بطرهم بالنعمة كما قال :

(وظلموا أنفسهم) إذ قد عرضوها للسخط والعذاب بغمط النعمة وعدم الوفاء بشكرها .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(جعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) أى جعلناهم أحاديث للناس يتسامرون بها ويعتبرون بأمرهم، وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيئ وصاروا مضرب الأمثال لقبيل لاقوم يتفرقون ؟ تفرقوا أيدي سبا ، فنزل آكل جفنة ابن عمرو الشام ، ونزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت أزد السّرة السّرة ، ونزلت أزد عمان عُماناً ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه .

(إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن في ذلك الذى حل بهؤلاء من النعمة والعذاب بعد النعمة والعافية عقوبة لهم على ما اجترحوه من الآثام - لعبرة لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم .

روى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عجبت من قضاء الله تعالى المؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى اللقمة يرفعها إلى في امرأته » وكان مُطَرِّف بن الشَّخِير يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠)
 وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ
 مِنْهَا فِي شَكٍّ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ (٢١).

شرح المفردات

صدق عليهم إبليس ظنه : أى وجد ظنه فيهم صادقاً ، لانهما كهم في الشهوات
 واستفراغ الجهد في اللذات ، سلطان : أى تسلط واستغواء بالوسوسة ، حفيظ : أى
 وكيل قائم على شئون خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته قصص سبأ ، وما كان من أمرهم في اتباع الهوى
 والشیطان - أردف ذلك بالإخبار بأنهم صدقوا ظن إبليس فيهم وفي أمثالهم ممن
 ركبوا إلى الغواية والضلال ، إذ تسلط عليهم وانقادوا إلى وسوسته ، وبذا امتازوا
 من فريق المؤمنين الذين لاسلطان للشیطان عليهم كما قال سبحانه : « إِنَّ عِبَادِي
 لَإِيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

الإيضاح

(ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقتا من المؤمنين) أى ولقد ظن
 إبليس بهؤلاء الذين بدلناهم بجناتهم جنتين ذواتى أكل حُط عقوبة مناهم - ظنا
 غير يقين أنهم يتبعونه ويطيعونه في معصية الله ، وحين أغواهم وأطاعوه وعصوا
 ربهم تحقق صدق ظنه فيهم ، إلا فريقتا من المؤمنين ثبتوا على طاعة الله
 ومعصية إبليس .

ثم ذكر أنه ابتلاههم ليظهر حال المؤمنين من حال الشاكين في الآخرة فقال :

(وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) أى وما كان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها ، ولكننا أردنا ابتلاءهم واختبارهم ليظهر حال من يؤمن بالآخرة ويصدق بالثواب والعقاب ممن هو منها في شك ، فلا يوقن بمعاد ، ولا يصدق بثواب ولا عقاب .

قال الحسن البصرى : والله ماضرهم بعضا ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وخلاصة ذلك : لاسطان لإبليس على قلوب الناس ، ولكنى أسلطه عليهم كما أسلط الذباب على العيون القذرة ، والأوبئة على البلاد التي لم يراع أهلها شروط النظافة في مساكنهم وملابسهم وماكلهم ، ولا أفعل ذلك إلا للحكمة ، فإذا حل الوباء بأرض مات من لاقدرة له على مقاومة جراثيم الأمراض وبقي من هو قادر على المقاومة ولديه قوة المناعة ، وهكذا وسوسة الشيطان يفرق الله بها بين الثابت العقيدة والمتزلزها ، ومن انقاد لها فلا يؤمن إلا نفسه وهو المذنب وحده ، وهكذا جميع حوادث الدنيا من مصائب وآلام يثبت لها ذور العزيمة الصادقة ، ولا يضرب حين حلولها إلا الضعيف الذى ليس له جلد ولا صبر .

(وربك على كل شيء حفيظ) أى وربك أيها الرسول حفيظ على أعمال هؤلاء الكفار وغيرهم ، لا يعزب عن علمه شيء ، وهو يجازيهم جميعا يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من خير أو شر ، فمن أحببت الله وأتاب إليه لاقى من الثواب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ومن دسى نفسه الأمانة بالسوء وانهمك فى شهواته لاقى من سوء الجزاء كفاء أعماله نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ

ظهير (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)

شرح المفردات

ادعوا: أى نادوا، زعمتم: أى زعمتموهم آلهة، من شرك: أى شركة، والظهير: المعين، والتفزع: إزالة الفزع؛ وهو انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشيء الخفيف.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزت قدرته ما آتاه الشاكرين من أوليائه كداود وسليمان من النعم التي لا حصر لها، وما فعله بسبأ حين بطروا النعمة وكذبوا الرسل - أعقب ذلك بأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين من قومه تهكما بهم وتعجبا من حالهم: ادعوا آلهتكم الذين زعمتموهم شركاء لله، فسأولهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام، فإن لم يستطيعوا ذلك فاعلموا أنهم مبطون.

ثم ذكر أن شأن المعبود أن يكون نافعا للعابد يخشى بطشه وسطوته، وهؤلاء ليس لهم شيء من ذلك، إذ لا تصرف لهم في شيء في السموات والأرض لا استقلالاً ولا شركة، ولا هم معينون للخالق فيهما، ولا تنفع شفاعتهم لديه، فكيف تقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذي علمتم من أمرهم.

الإيضاح

(قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك موثقاً لهم ومبيناً لهم سوء ما يصنعون: ادعوا هؤلاء الأصنام في مهام أموركم ليدفعوا الضر عنكم أو يجلبوا النفع لكم، لعلمهم يستجيبون لكم إن كان ذلك في مكنتهم ويبدون مقاليد أموركم.

ثم أبان لهم عظيم خطيئهم وكبير جرمهم فقال :

(لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) أى هؤلاء الآلهة لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض من خير أو شر ، فكيف يكونون آلهة يرجى معهم نفع أو يخشى منهم ضرر .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ » .

(وما لهم فيهما من شرك) أى ولا هم يملكون مثقال ذرة فيهما على سبيل الشركة ، والمراد أنهم لا يملكون شيئاً لاعلى سبيل الاستقلال ولا على سبيل الشركة للخالق لها .

(وما له منهم من ظهير) أى وما لله من الآلهة التي يدعون من دونه - معين على خلق شيء من ذلك ، ولا على حفظه .

(ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) أى ولا تنفعهم شفاعتهم عنده تعالى ، إذ لا شفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع ، وهو لا يأذن أحداً أن يشفع لهؤلاء الكافرين كما قال تعالى : « لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » .
والشفاعة لمثل هؤلاء لا تكون أبداً .

ثم ذكر ما يحدث بعد انتظار الإذن بالشفاعة فقال :

(حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق) أى يقف الناس منتظرين الإذن بالشفاعة وجلين حتى إذا أذن للشافعين وأزيل الفرع عن قلوب المنتظرين قال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم في الإذن بالشفاعة ؟ قالوا قال ربنا القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى .

والآيات تدل على أن المشفوع لهم هم المؤمنون ، والكافرون بمعزل عن موقف الاستشفاع .

والخلاصة - إن الشفاعة لاتنفع في حال إلا لشافع أذن له فيها من النبيين

والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة، ثم ذكر اعتراف الشفعاء بعظمة خالق
السكون وقصور كل ما سواه فقال :

(وهو العلى الكبير) أى وهو جل شأنه المتفرد بالعلو والكبرياء لا يشاركه
فى ذلك أحد من خلقه ، وليس لأحد منهم أن يتكلم إلا من بعد إذنه .

وفى هذا تواضع منهم بعد أن رفع سبحانه أقدارهم بالإذن لهم بالشفاعة ، وقبه
أيضا ثناء على الله كما لا يخفى .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ
لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُلْ لَأَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ
عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ
الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهْلَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ، كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

شرح المفردات

أجرمنا: أى وقعنا فى الجرم، وهو الذنب ، ويفتح: أى يحكم ، والفتاح: الحاكم،
أرونى الذين أهلكتم به شركاء: أى أعلمونى بالدليل وجه الشركة ، كلاً: كلمة للزجر عن
كلام أو فعل صدر من المخاطب .

المعنى الجملى

بعد أن سلب سبحانه عن شركائهم ملك شىء من الأكوان ، وأثبت أن ذلك
له وحده - أمر نبيه أن يجعلهم يقرون بتفرد بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية ،
وأن يخبر بأن أحد الفريقين الموحدين للرازق والمشركين به الجداد - مبطل والآخر

محق ، وقد قام الدليل على التوحيد فدل على بطلان ما أتم عليه من الشرك ، وأن يقول لهم : لا تُؤاخذون بما تعمل ولا تؤاخذ بما تعملون ، وأن يقول لهم : إن ربنا هو الذي يحكم بيننا يوم القيامة وهو الحكيم العليم بجلال الأمور ودقاتها ، وأن يقول لهم : أعلموني عما ألحقتم به من الشركاء ، هل يخافون وهل يرزقون ؟ كلا بل الله هو الخالق الرازق الغالب على أمره ، الحكيم في كل ما يفعل .

الإيضاح

(قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟) أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين برهبهم الأوثان والأصنام : من يرزقكم من السموات يا نزال الغيث عليكم ، حياة لحروثكم وصلاحا لمعايشكم ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم - ومن الأرض بإخراج أقواتكم وأقوات أنعامكم ؟ فإن هم قالوا لاندري فأجيبهم :

(قل الله) هو الذي يرزقكم ، إذ لأجواب عندهم سواه في قرارة أنفسهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به عنادا مع علمهم بصحته ، ولأنهم لو تفوهوا به لقال لهم : فما لكم لاتعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ؟ كما قال سبحانه تباركنا لهم : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ؟ »

ثم أمر رسوله أن يقول لهم بعد الإلزام الذي ليس بأقل من الاعتراف بأنفسهم . (وإنا أو إياكم على هدى أو في ضلال مبين) أي وإن أحد الفريقين منا معشر الذين يوحدون الرزاق لمن في السموات والأرض ويفردونه بالعبادة ، والذين يشركون به الجماد الماجز عن دفع الضر وجلب النفع - على الهدى أو في الضلال البين الذي لا شك فيه .

وهذا أسلوب من الكلام النصف تستعمله العرب في محاوراتها لإرخاء العنان
المخاطب حتى إذا سمعه الموافق أو المخالف قال لمن خوطب به لقد أنصفك صاحبك .
ألا ترى الرجل يقول لصاحبه : قد علم الله الصادق مني ومنك ، وإن أهدنا
للكاذب ، وعليه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هجا رسول الله
صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم :

أنه جوه ولسنت له بكف فشر كما تلخير كما الفداء

وفي ذكر هذا بعد ما تقدمه من الخجج الظاهرة على التوحيد ، دلالة واضحة على
تمييز المهتدي من الضال ، والإيماء بأبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع
قلة شعب الخضم وقل شوكتيه بالهويني .

ثم زاد في إنصافهم في الخاصة ، فأستند الإجماع إلى أنفسهم والعمل
للمخاطبين فقال :

(قل لا تسألون عما أجرمتنا ولا نسأل عما تعملون) أي قل لهؤلاء المشركين :
أنتم لا تسألون عما اكتسبنا من الآثام وارتكبنا من الذنوب ، ونحن لا نسأل عما تعملون
من عمل - خيرا كان أو شرا .

وتحوي الآية قوله : « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ
بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم إذ أمر رسوله أن يقول لهم :

(قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم) أي قل لهم : إن
ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب ثم يقضى بيننا بالعدل بعد
ظهور حال كل منا ومنكم ، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور ، وهناك يجرى
كل عامل بما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وستعملون يومئذ لمن العزة
والنصرة والسعادة الأبدية كما قال : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومئذٍ ينفركون » .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ .

ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزامهم الحجة بتبكيتهما فقال :

(قل أروني الذين ألقمتم به شركاء) أى قل لهم : ما الذى عراكم ودخل

فى أذهانكم من الشبه حتى جعلتم هؤلاء أندادا لله وشركاء ، وبأى صفة ألقمتموهم به
فى استحقاق العبادة ؟

ثم نبه إلى فاحش غلظهم وعظيم خطيئهم بقوله :

(كلا، بل هو الله العزيز الحكيم) أى ليس الأمر كما وصفتم ، فلا نظير له تعالى

ولاندد ، بل هو الله الواحد الأحد ذو العزة التى بها قهر كل شئ ، وهو الحكيم
فى أفعاله وأقواله ، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذى يسعد من اعتنقه فى حياته
الأولى والآخرة .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

لَا يَفْقَهُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩)

قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على التوحيد وضرب لذلك الأمثال حتى لم يبق بعدها زيادة
لمستزيد - شرع يذكر الرسالة و يبين أنها عامة للناس جميعا ، ولكن أكثر الناس
لا يصدقون فيحملهم ذلك على مخالفتك ، ثم ذكر سؤال منكبرى البعث عن الساعة
استهزاء بها ، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال .

الإيضاح

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) أى وما أرسلناك إلى قومك خاصة ، بل أرسلناك إلى الخلق جميعا عربهم وعجمهم أسودهم وأحمرهم ، مبشرا من أطاعنى بالثواب العظيم ، ومنذرا من عصانى بالعذاب الأليم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » وقوله : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيحماهم جهلهم على الإصرار على ما هم فيه من النى والضلال .

ونحو الآية قوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » وقوله : « وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون استهزاء لفرط تعنتهم وجهلهم : متى هذا الذى توعدوننا به مبشرين ومنذرين إن كنتم أيها الرسول والمؤمنين صادقين فيما تقولون .

ونحو الآية قوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ » .

ثم أمر رسوله أن يجيبهم عن سؤالهم فقال :

(قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) أى قل لهم أيها الرسول إن لكم ميعاد يوم هو آتاكم لا محالة ، لا تستأخرون عنه ساعة إذا جاء فتنتظروا للتوبة والإنابة ولا تستقدمون قبله للعذاب ، لأن الله جعل لكم أجلا لاتعدونه .

والخلاصة — دعوا السؤال عن وقت مجيء الساعة ، فإنه كائن لا محالة ، وسلوا عن أحوال أنفسكم حين تكونون مبهوتين متحيرين من هول ما تشاهدون فهذا أليق بكم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ،
 وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
 الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنَّهُمْ لَكُنَّا
 مُؤْمِنِينَ (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
 عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا
 لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ
 وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ، وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ
 فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

المعنى الجملى

لما ذكر الأصول الثلاثة وهى التوحيد والرسالة والحشر وكانوا كافرين بها جميعا -
 ذكر شأن جماعة من المشركين جاهدوا بإنكار القرآن وبكل كتاب سبقه من الكتب
 السابوية السابقة، ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب
 والجزاء، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين الضالين ومضليهم من الكفار وما يسرونه
 من الحسرة والتندامة حين يرون العذاب، ثم أعقبه بذكر ما سيحقيق بهم من الإهانة
 بوضع الأغلال في الأعناق، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سبب الأعمال،
 وما دسوا به أنفسهم من قبيح الخلال.

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) أى وقال
 مشركو العرب : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب التى سبقته ، ولا بما اشتملت

عليه من أمور الغيب التي تتصل بالآخرة من بعث وحساب وجزاء .
 روى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم
 فأخبروهم أنهم يحدون صفته في كتبهم فأغضبهم ذلك وقالوا ما قالوا :
 ثم ذكر ما يكون من حوار بين ضالهم ومضليهم حين الوقوف بين يدي الملك
 الديان للحساب والجزاء فقال :

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول)
 أى ولو ترى أيها الرسول حال أولئك الكافرين وما هم فيه من مهانة وذلة ، يحاور
 بعضهم بعضا ويتلاومون على ما كان بينهم من سوء الأعمال والسبب فيمن أوقعهم
 في هذا النكال والوبال - رأيت العجب العاجب والمنظر الحزى الذى يستكين منه
 المرء خجلا .

ثم فصل ذلك الحوار فقال :

(يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أتم لكننا مؤمنين) أى يقول
 الأتباع للذين استكبروا فى الدنيا واستتبعوهم فى النى والضلال ، لولا أتم أيها السادة
 صددتمونا عن الهدى لكننا مؤمنين بما جاء به الرسول .
 ثم حكى سبحانه رد الرؤساء عليهم بقوله :

(قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟
 بل كنتم مجرمين) أى قال الذين استكبروا فى الدنيا وصاروا رؤساء فى الكفر
 والضلالة للذين استضعفوا فكانوا أتباعا لأهل الضلال منهم : أنحن منعناكم من
 اتباع الحق بعد أن جاءكم من عند الله ؟ بل أتم منعتم أنفسكم حظها بإجرامكم
 وإيثاركم الكفر على الإيمان .

والخلاصة - إننا لم نحل بينكم وبين الإيمان لو صممتم على الدخول فيه ،
 بل كنتم مجرمين ، فمنعكم إيثاركم الكفر على الإيمان من اتباع الهدى .
 ثم حكى رد المستضعفين على قول المستكبرين بقوله :

(وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أى وقال الأتباع للرؤساء فى الضلال : صدنا مكرم بنا وخذاعكم فى الليل والنهار حين كنتم تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أمثالا وأشباها فى العبادة. وإجمال ذلك — ما صدنا إلا مكرم أيها الرؤساء بالليل والنهار حتى أزلتمونا عن عبادة الله ، فأتتم كنتم تغروننا وتمنوننا وتخبروننا أننا على الهدى وأنا على شيء ، كل ذلك باطل وكذب .

ثم ذكر مال أمرهم وسوء عاقبتهم فقال :

(وأسروا الفدامة لما رأوا العذاب) أى وأضمر كل من الفريقين المستكبرين والمستضعفين — الندم على ما فرط منهم فى الدنيا حين رأوا العذاب ، إذ هم بهتوا مما عينوا فلم يستطيعوا أن ينطقوا ببنت شفة .
وإخلاصة — إنهم ندموا على ما فرطوا من طاعة الله فى الدنيا حين شاهدوا عذابه الذى أعده لهم .

(وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) أى وجعلنا أغلال الحديد فى أعناق هؤلاء فى النار .

ثم ذكر أنه لاجزاء لأمثالهم إلا هذا فقال :

(هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى وما يفعل ذلك بهم إلا جزاء لما اجترحوا من الكفر والآثام « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » وقد قالوا فى أمثالهم : إنك لا تجنى من الشوك العنب .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)
قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا
 زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ
 فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ
 فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ (٣٨) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قول المشركين لرسوله إن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه
 بعد أن طال به الأمد في دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير كما قال : « فَلَمَّا لَكَ
 بِأَخِيحِ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » - سلاه مما ابتلى
 به من مخالفة متر في قومه له وعداوتهم إياه أمراه بالتأسى بمن قبله من الرسل ، فإنه
 ليس بدعا من بينهم ، فما من نبي بعث في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤها
 كما قال : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرُمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا »
 ثم ذكر حجبتهم بأنهم لا حاجة لهم إلى الإيمان به ، فها هم فيه من مال وولد برهان
 ساطع على محبة الله إياهم ، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره كما يكون للبر يكون
 للفاجر ، لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية وأسباب قدرها سبحانه في هذه الحياة ، فمن
 أحسن استعمالها استفاد منها ؛ ثم ذكر أن المتقين يتمتعون إذ ذاك بغرف الجنان وهم
 في أمن ودعة ، وأن الذين يصدون عن سبيل الله في نار جهنم يصلونها أبدا ، ثم
 وعد المنفقين في سبيل الله بالإخلاف ، وأوعد المسكين بالإتلاف .

الإيضاح

(وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) أى
 وما بعثنا إلى أهل قرية نذيرا ينفذهم بأسنا أن ينزل عليهم على معصيتهم إيانا إلا قال

كبراًؤها وأولو النعمة والثروة فيها : إنا لانؤمن بما بعثتم به من التوحيد والبراءة من الآلهة والأنداد .

وليس في ذلك من عجب ، فإن المنغمسين في الشهوات يحملهم التكبر والتفاخر بزينة الحياة الدنيا على النفور من الكمال الروحي ، ومن تثقيف النفوس بالإيمان والحكمة ، فالضدان لا يجتمعان : انغماس في الشهوة وعلم وحكمة ، ثروة مادية وثروة روحية .

ثم ذكر تفاخرهم بما هم فيه من بسطة العيش ، وكثرة الولد وأن ذلك سيكون سبب نجاتهم من العذاب في الآخرة بقوله :

(وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) أى وقال المستكبرون في كل قرية أرسلنا فيها نذيراً : إنا ذوو عدد عديد من الأولاد وكثرة في الأموال فنحن لانعذب ، لأن ذلك دليل على محبة الله لنا ، وعنايته بنا ، وأنه ما كان يعطينا ما أعطانا ثم يعذبنا في الآخرة .

هيئات هيئات ، إنهم قد ضلوا ضللاً بعيداً ، وأخطئوا القياس « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَنَبِينٍ . نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ » .

وخلاصة آرائهم — نحن في نعمة لانشوبها نعمة ، وذلك دليل على كرامتنا عند الله ورضاه عنا ، إذ لو كان ما نحن فيه من الشرك وغيره مما تدعوننا إلى تركه — مخالفاً لما يرضيه — لما كنا فيما نحن فيه من نعمة وبسطة في العيش وكثرة الأولاد : فرد الله عليهم مقاتلهم أما رسوله أن يبين لهم خطأهم بقوله :

(قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى قل لهم أيها الرسول : إن ربي يبسط الرزق من معاش ورياش في الدنيا لمن يشاء من خلقه ويضيق على من يشاء ، لا لحجة فيمن يبسط له ذلك ، ولا لخير فيه ولا زلفى استحقق بها ذلك ، ولا لبعض منه لمن قدر عليه ولا لملقت منه له ، ولكنه يفعل ذلك لسنن وضعها

لكسب المال في هذه الحياة ، فمن سلك سبيلها وصل إلى ما يبغي . ومن أخطأها
 وضل لم يفل شيئا من حظوظها ؛ ولا رابطة بين الثراء ومحبة الله ، ألا ترى أنه ربما
 وسع سبحانه على العاصي وضيق على المطيع ، ور بما عكس الأمر ، وقد يوسع على
 المطيع أو العاصي تارة ويضيق عليهما أخرى - يفعل كل ذلك على حسب ما اقتضته
 مشيئته اللبينية على الحكم البالغة التي قد نعلمها ور بما خفي علينا أمرها ، ولو كان البسط
 دليل الإكرام والرضا لاختص به المطيع ، ولو كان التضيق دليل الإهانة لاختص به
 العاصي ، ومن ثم جاء قوله صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح
 بعوضة ما أعطى الكافر منها شيئا » .

(واكن أ أكثر الناس لا يعلمون) أن الله يفعل ذلك على حسب السنن التي
 وضعها في الكون ، بل يظنون أن ذلك لمحبة منه لمن بسط له ، ومقت منه لمن قُدر
 عليه، حتى تحير بعضهم واعترض على الله في البسط لأناس والتضيق منه على آخرين
 ومن ثم قال :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
 هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

ثم بين سبحانه لعباده أن الزلفي عنده ليست بكثرة المال والولد ، بل بالقوى
 وصلاح العمل ، فقال :

(وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقر بكم عندنا زلفي إلا من آمن وعمل صالحا
 فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون) أي وما أموالكم التي
 تفتخرون بها على الناس ، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم بالتي تقر بكم منا ، لكن
 من آمن وعمل صالحا فإيمانهم وعملهم يقر بانهم مني ، وأولئك أضعاف لهم ثواب
 أعمالهم فأجازيهم بالحسنة عشر أمثالها أو أكثر إلى سبعائة ضعف ، وهم في غرفات
 الجنات آمنون من كل خوف وأذى ومن كل شر يحذر منه .

روى عن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن في الجنة لغيرا ترى ظهورها من بطونها و بطونها من ظهورها ، فقال أعزأبى لمن هى ؟ قال : لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام . »

ثم بين حال المسيء الذى يبعده ماله وولده من الله فقال :

(والذين يسعون فى آياتنا معاجزين فأولئك فى العذاب محضرون) أى والذين يصدون عن آيات كتابنا بالطعن فيها بيتعون إبطالها ، ويريدون إطفاء أنوارها ظانين أنهم يفوتونها وأنتا لن تقدر عليهم ، فأولئك فى عذاب جهنم يوم القيامة تحضرهم الزبانية إليها ولا يجحدون عنها محيصا ، ولا يجديهم نفعا ما عولوا عليه من شفاعة الأصنام والأوثان .

ثم زهد عباده فى الدنيا وحضهم على التقرب إليه بالإففاق فقال :

(قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أى قل لهم أيها الرسول : إن ربي يوسع الرزق على من يشاء من عباده حينما وبضيقه عليه حينما آخر ، فلا تحشوا الفقر وأنفقوا فى سبيل الله وتقر بوا إليه بأموالكم لتتالكم نفقة من رحمته .

(وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) أى وما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم ويعوضكم بدلا منه فى الدنيا مالا وفى الآخرة بالثواب الذى كل خلف دونه ، وفى الحديث : « أنفق بلالا ، ولا تحش من ذى العرش إقلالا » .

وعن مجاهد أنه خصه بالآخرة إذ قال : إذا كان لأحدكم شيء فليقتصد ولا يتأول هذه الآية : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » فإن الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه .

(وهو خير الرازقين) فيرزقه من حيث لا يحتسب ولا رازق غيره .

روى الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ الْمَلَأَيْكَةُ: أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن حال النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه ليس بدعا بين الرسل ، فخاله معهم كحال من تقدمهم منهم مع أقوامهم ، فكلمهم كذبوا وكلمهم أودوا في سبيل الله ؛ ثم أعقب ذلك بأن رد عليهم بأن كثرة الأموال والأولاد لاصلة لها بمحبة الله ، ولا سخطه - أردف ذلك بما يكون من حالهم يوم القيامة من التفرغ والتأنيب بسؤال الملائكة أمامهم : هل هؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ فيجيبون بأنهم كانوا يعبدون الشياطين بوسوستهم إليهم ، ثم بين أنهم في ذلك اليوم لا يقع لهم نفع ممن كانوا يرجون من الأوثان والأصنام ، ويقال لهم على طريق التوبيخ والتهم : ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟)
 أى واذكر أيها الرسول لقومك : يوم نحشر العابدين منهم والمعبودين المستكبرين منهم والمستضعفين ، ثم نسأل الملائكة : أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟
 وهذا سؤال وجه إلى الملائكة ظاهرا ، والمراد منه تفرغ المشركين وتبئسهم مما علقوا عليه أطعاهم من شفاعتهم لهم ، فهو وارد على نهج قولهم : إياك أعنى واسمعى بإجاره ،

وعلى نهج قوله تعالى لعيسى « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّهِ؟ » .

وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى بُرآء مما وجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، ولكن جاء ليقول ويقولوا ، ويسأل ويحيبوا ، فيكون توبيخهم أشد ، وتعيرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم .

(قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) أى قالت الملائكة : تعاليت ربنا وتقدست عن أن يكون معك إله ، نحن عبيدك نبأ إليك من هؤلاء وأنت الذى نواليه دونهم ، فلا موالاة بيننا وبينهم .

والخلاصة — إننا براء من عبادتهم والرضا بهم .

ثم بين أنهم ما عبدوهم على الحقيقة بقوله :

(بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) أى بل هم كانوا يعبدون الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأصلوهم ، وأكثر المشركين مؤمنون بالجن مصدقون لهم فيما يقولون ، إذ كانوا يعبدون غير الله برسوستهم ويستغيثون بهم فى قضاء حاجتهم كما هو مشهور لدى أرباب العزائم والسحرة .

ونحو الآية قوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ » .

ولما أبطل تمسكهم بهم بعد تقر يعوم وتأنيبهم زادهم أسى وحسرة فقال :

(فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) أى فاليوم لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان والأنداد الذين ادخرتم عبادتهم لشدائدكم وكرؤبكم ، لأن الأمر فى ذلك اليوم لله الواحد القهار، لا يملك أحد فيه منفعة لأحد ولا مضرة له .

(وتقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) أى ونقول

للمشركين زجرا لهم وتأنيبا : ذوقوا عذاب النار التى كنتم تكذبون بها فى دنياكم ،

فها تم أولاء قد وردتوها وسمعت شهيقتها وزفيرها ، وليس أنخبر كأنخبر ، ولا السماع كالمعاينة ، فمضوا بنان الندم أسي وحسرة على ما قدمتم في دنياكم ، فنجيت صابه وعاقمه في أخراكم .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ
يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ
مِنْ كِتَابٍ يَنْدَرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرٍ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى
ثُمَّ تَنْفَكُّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِذْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلامَ
الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ
صَلَّيْتُ فَأِنَّمَا أَصَلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ، وَإِنْ اهُتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ
قَرِيبٌ (٥٠)

المعنى الجملي

بعد أن ذكر أن المشركين هم أهل النار يوم القيامة وأنه لا ينالون يومئذ ذوقوا
عذابها الذي كنتم به تكذبون - أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب

وهو صدمهم عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم في القرآن : إنه إفاك مفترى ، وإنه سحر واضح لاشك فيه ، وقد كان فيما حلّ بالأمم قبلهم مزدجر لهم لو أرادوا ، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا ، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم فأخذوا أخذ عزيز مقتدر ، ثم أنذرهم سوء عاقبة ما هم فيه وأوصاهم بأن يشمروا لطلب الحق متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ثم يتفكروا ليعلموا أن صاحبهم ليس بالمجنون ، بل هو نذير لهم يخوفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة وقد كان لهم من حاله ما يرغبهم في دعوته ، فهو لا يطلب منهم أجرا ولا يريد منهم جزاء ، وإنما مشوبته عند ربه المطمع على كل شيء ؛ ثم أبان لهم أن الحق قد وضح وجاءت أعلام الشريعة كخلق الصبح نورا وضياء ولا بقاء للباطل ولا قرار له إذا ظهر نور الحق « فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ » .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) أى وإذا تتلى آيات الكتاب الكريم على المشركين دالة على التوحيد وبطلان الشرك ، قالوا إن هذا الرجل يريد أن يلفتكم عن الدين الحق دين الآباء والأجداد ، ليجعلكم من أتباعه دون أن يكون له حجة على ما يدعى ، وبرهان يدل على صحة ما يسلك من سبيل .

ثم زادوا إنكارهم توكيدا وأياسوه من الطمع في إيمانهم .

(وقالوا ما هذا إلا إفاك مفترى) أى وقالوا إن القرآن الذى يدعى محمد أنه وحى من عند ربه - كذب مختلق من عنده ، وقد نسبه إلى ربه ترويجا للدعوة واجتلابا لقلوب الكافة .

ثم شدد ما فى الإنكار فجعلوه سحرا بيننا لاشك فيه عندهم كما حكى عنهم بقوله :
(وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) أى وقال المشركون

لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عنده مشتملا على الهدى والشرائع التي وجهتهم في حياتهم الاجتماعية ونظم المعيشة وجهة جديدة تكون بها سعادتهم في معاشهم ومعادهم وغيرت الطريق التي ورثوها عن الآباء والأجداد — بما هذا إلا سحر بين لاخفاء فيه عندنا ، وقد أعمى أبصارنا وأضل أحلامنا فلم نستطع أن ندفعه بكل سبيل ، ولا يزال يلج القلوب ويقتحمها ويداخل النفوس ويستحوذ عليها ، ونحن في حيرة من أمره لا نجد طريقا للتغلب عليه بالوسائل التي نعرفها وهي بين أيدينا .
والخلاصة — إنهم نفوا أن يكون وحياً من عنده وجعلوه إما كلاما مفترى جاء به لترويج دعوته ، وإما سحرا فعله ليخُلب به العقول ويصد الناس عن الدين الحق الذي ورثوه عن الآباء والأجداد .

فرد الله سبحانه عليهم منكرا دعواهم أن دينهم هو الدين الحق بقوله :

(وما آتيناكم من كتب ينذرونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) أى إن الدين الصحيح إنما يأتي يوحى من عند الله وبكتاب ينزل على الرسول ليملأه للناس ويبين لهم فيه ما جاء به من الشرائع والآداب والفضائل التي تكون بها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم ، وهم أمة أمية لم يأتهم كتاب قبل القرآن ، ولم يبعث إليهم رسول قبل محمد ، فن أين أتاهم أن الدين الحق هو الذى يرشد إلى صحة الإشراف بالله ، وينفى توحيد الخالق حتى يكون لهم معذرة فيما يدعون ، وحجة على صحة ما يمتدنون ؟ .

ولا يخفى ما فى هذا من التهمك بهم والتجهيل لهم :

ونحو الآية قوله : « أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » وقوله : « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهَمَّ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ » .

وبعد أن بشر وأنذر وأبان بالحجة والبرهان ما كان فيه المقنع لهم لو كانوا يعقلون ، سلك بهم سبيل التهديد والوعيد وضرب لهم المثل بالأُمم التي كانت قبلهم وسبكت سبيلهم ولم تُجدِّها الآيات والنذر ، فخل بها بأس الله وأتاه العذاب من حيث لا تحتسب فقال :

(وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان تكذيب) أى ولقد كان لهم فيمن قبلهم من الأمم البائدة والقرون الخالية كقوم نوح وعاد وثمود ، وقد بلغوا من القوة والبأس ما لم يبلغوا معشاره ، فكذبوا رسلي حين أرسلوا إليهم فخل بهم النكال والوبال ودُعروا تدميرا ، ولم تكن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وإنهم ليشهدون آثارهم في حلهم وترحالهم في غدوهم ورواحهم كما قال في آية أخرى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصَيِّبِينَ . وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقُلُونَ » فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك .

والخلاصة — إن فيما سئل بمن قبلهم من المثلث نكالا لهم على تكذيبهم رسالهم — لعبرة لهم لو كانوا يعقلون .

ثم أطال لهم الحبل ومدَّ لهم الباع وأنصفهم في الخصومة فقال :

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تنفكروا) أى قل لهم : إن أرشدكم أيها القوم وأنصح لكم ألا تبادروا بالتكذيب عنادا واستكبارا ، بل اتشدوا وتفكروا مليا فيما دعوتكم إليه وجدوا واجتهدوا في طلب الحق خالصا ، إما واحدا فواحدا ، وإما اثنين اثنين لعلمكم تصلون إلى الحق وتهتدون إلى قصد السبيل وتكونون قد أنصفت الحقيقة وأمطمت الحجب التي غشت أبصاركم ورائت على قلوبكم فلم تجعل الحق ينفذ فيها .

وإنما طلب إليهم التفكير وهم متفرقون اثنين اثنين أو واحدا فواحدا ، لأن في الازدحام تهويش المخاطر والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام وقلة الإنصاف ، وفيما يشاهد كل يوم من الاضطراب وتبليبل الأفكار في الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة ما يؤيد صدق هذا .

ثم أبان لهم أن نتيجة الفكر ستؤدى بهم إلى أن يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح .

(ما بصاحبكم من جنة) إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذي فيه سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم لا يتصدى لادعائه إلا أحد رجلين : إما مجنون لا يبالي باقتضاه حين مطالبته بالبرهان وظهور عجزه ، وإما نبي مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه .

وإنكم قد علمتم أن محمدا أرجح الناس عقلا ، وأصدق الناس قولاً ، وأزكاهم نفساً ، وأجمعهم للكمال النفسى والعقلى ؛ فوجب عليكم أن تصدقوه في دعوته ، وقد قرنها بالمعجزات الدالة على ذلك .

وفي التعبير بصاحبكم إيماء إلى أنه معروف لهم مشهور لديهم ، فهو قد نشأ بين ظهرانيهم وعلّموا ماله من صفات الفضل والنبل وكرم الخلال مما لم يتهبأ لأحد من أتباعه ولداته .

وإذ قد استبان بالدليل أنه ليس بالمجنون في كل ما يقول ويدعى ، اتضح أنه صادق كما قال :

(إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) أى ما هذا الرسول بالكاذب ، بل هو نذير لكم بعقاب الله حين تقدمون عليه ، لكفركم به وعصيانكم أمره . وإمّا جعل إنذاره بين يدي العذاب ، لأن محمدا مبعوث قرب الساعة كما جاء في الحديث « بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقني » .

وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « سعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال : يا صباحاه ، فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : رأيتم لو أخبرتم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا بلى ، قال صلى الله عليه وسلم : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبّاً لك ، أهدأ جمعتنا ؟ فأنزل الله عز وجل : تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

ولما نفي عن رسوله الجنون وأثبت له النبوة : — ذكر وجه آخر يؤكد

ذلك فقال :

(قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد) أى قل لهم : إنى لا أريد منكم أجرا ولا عطاء على أداء رسالة ربى إليكم ونصحى لكم وأمرى بعبادته ، إنما أطلب ثواب ذلك من الله ، وهو العليم بجميع الأشياء ، فيعلم صدقى وخلص نيتى .

وإذا علم أن الذى حمّله على ركوب الصعاب واقتحام الأخطار ليس أمرا دينويا ، ثبت أن الذى حفره إلى ذلك هو أسرار الله تعالى له وقد صدع به «فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ» وبهذا ثبت أنه نبيّ .

ولما استبان أنه ليس بالمجنون ولا هو بطالب الدنيا - علم أن الذى جاء به هبط إليه من السماء وقذفه الوحى إليه ، وقد أمر أن يبلغه إليهم كما أشار إلى ذلك بقوله :

(قل إن ربى يقذف بالحقّ علام الغيوب) القذف الرمي بدفع شديد: أى قل لمن أنكر التوحيد ورسالة الأنبياء والبعث : إن ربى يلقى الوحى وينزله على قلب من يجتنبه من عبادى ، وهو العليم بمن يصطفهم كما قال سبحانه : «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» وقال : «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» .

وقد يكون المعنى كما روى عن ابن عباس : إن ربى يقذف الباطل بالحق ؛ أى يورده عليه حتى يبطله ويزيل آثاره ويشيع الحق فى الآفاق .

ولا يخفى مافى هذا من عِدّة باظهار الإسلام ونشره بين الناس وتبليج نوره فى الكون ، ونحوه «بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ» .

ثم أكد ما سلف بأمره صلى الله عليه وسلم أن يخبر قومه بأن الإسلام سيعلو على سائر الأديان وأن غيره سيضمحل ويزول فقال :

(قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى قل جاء الاسلام ورفعت رايته وعلا ذكره ، وذهب الباطل فلم تبق منه بقية تبدى شيئا أو تعيده .

وأصله في هلاك الحي فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء أى فعل أمر ابتداء، ولا إعادة
أى فعله ثانيا ، وأنشدوا لعبيد بن الأبرص :

أفقر من أهله عبيد فالיום لا يُبدي ولا يُعيدُ

روى البخارى ومسلم « أنه لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام
يوم الفتح ووجد الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه
ويقرا : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا - قُلْ جَاءَ الْحَقُّ
وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » .

ولما سد عليهم مسالك القول ، لم يبق إلا أن يقولوا عنادا : إنه قد عرض له
ما أضله عن محجة الصواب ، فأمر رسوله أن يقول لهم :

(قل إن ضللت فإني أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربي إنه
سميع قريب) أى قل أيها الرسول لقومك : إن ضللت عن الهدى وسلكت غير
طريق الحق فإني أضل ذلك على نفسي ، وإن استقيت على الحق فبوحى الله إلى
وتوفيقه للاستقامة على محجة الحق وطريق الهدى ، إنه سميع لما أقول وتقولون ،
ويجازى كلما يستحق ، قريب محجب دعوة الداعى إذا دعاه .

روى الشيخان عن أبى موسى الأشعري قال : « إنكم لاتدعون أصم ولا غابيا
إنما تدعون سميعا قريبا محجبا » .

والخلاصة — إن الخير كله من الله وفيما أنزله على من الوحي والحق المبين .

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)
وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ
مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

شرح المفردات

الفرع : انقباض ونفار من الأمر المهول الخيف ، التناوش : التناول السهل لشيء قريب ؛ يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته ، فاشه : يفوشه نوشاً ، وأنشدوا لغيلان بن حُرَيْث في وصف الإبل :

فهي تنوش الحوض نوشاً من علا نوشاً به تقطع أجواز الفسلا
يريد أنها عالية الأجسام طويلة الأعناق ، يقذفون بالغيب : أى يرجون بالظنون التي لا علم لهم بها ، والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يستيقنه : هو يقذف بالغيب .
بأشياءهم : أى أشباههم ونظرائهم في الكفر جمع شيع وشيع جمع شيعة ؛ وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع ، مريب : أى موقع في الريبة والظنة ، يقال أراب الرجل : أى صار ذا ريبة فهو مريب .

المعنى الجملى

بعد أن أبطل سبحانه شبههم ورد عليهم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد - هددهم بشديد العقاب إن هم أصروا على عنادهم واستكبارهم ، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون آمنا بالرسول ، وأنى لهم ذلك وقد فات الأوان ؟ وقد كان ذلك في مَكِنْتَهُمْ في دار الدنيا لو أرادوا ، أما الآن فإن ذلك لا يجديهم فتيلاً ولا قِطْمِيراً من جِراء ما كانوا فيه من شك مريب في الحياة الأولى ، وتلك سنة الله في أشباههم من قبل .

الإيضاح

(ولو ترى إذ فرغوا فلا فوت) أى ولو رأيت أيها الرسول هؤلاء المكذبين حين يفرغون مما رأوا من العذاب الشديد - لرأيت من الأمر ما يعجز القول عن وصفه ، فهم لا يمتكئون من الهرب ، ولا يفوتهم ذلك العذاب ولا يجدون ملجأ ولا مأوى ينتعدون فيه .

(وأخذوا من مكان قريب) أى وأخذوا حين الفرع من الموقف إلى النار ولم
يتمكنوا أن يمعنوا فى الهرب .

(وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أى وقالوا حينئذ : آمنا
بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأنى لهم ذلك وقد صاروا بعيدين عن قبول الإيمان ؟
إذ هذه الدار ليست أهلا لقبول التكليف من الإيمان بالله والعمل الصالح .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » .

(وقد كفروا به من قبل) أى وكيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة وقد كفروا
بالحق فى الدنيا وكذبوا الرسل ؟ .

(ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) أى وهم قد كانوا يرجعون بظنون لامستند
لهم فيها ، فيتكلمون فى الرسول بمطاعن ليس لها ما يؤيدها ، فتارة يقولون إنه شاعر ،
وأخرى إنه كاهن ، وثالثة إنه ساحر ، إلى نحو ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون
بالبعث والنشور والحساب والجزاء .

(وحيل بينهم وبين ما يشتهون) أى وحيل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا
ليعملوا صالحا كما قال : « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعُوا أَنفُسَ كُنَّا
بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » .

ثم بين أن هذه سنة الله فى أمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلهم فقال :
(كما فعل بأشياءهم من قبل) أى فعلنا بهم كما فعلنا بالأمم الماضية التى كذبت
رسلها فتمنوا حين رأوا بأس الله أن لو آمنوا ولكن لم يقبل منهم .

ثم علل عدم قبول إيمانهم ووصولهم إلى بغيتهم حينئذ بقوله :
(إنهم كانوا فى شك مريب) أى لأنهم كانوا فى الدار الأولى شاكين فيما
أخبرت به الرسل من البعث والجزاء ، وقد تغلغل الشك فى قلوبهم حتى صاروا
لا يطمئنون إلى شىء مما جاءوا به .

ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

- (١) حمد الله والثناء عليه بما هو أهله .
- (٢) مقال المشركين في إنكار البعث والرد عليهم بأنه آتٍ لا شك فيه .
- (٣) الاستهزاء بالرسول وحكمهم عليه بأنه إما مفتر وإما مجنون .
- (٤) النعم التي آتاها سبحانه داود وسليمان عليهما السلام .
- (٥) ما كان لسباً من النعم ثم زوالها لكفرانهم بها واتباعهم وسوسة الشيطان .
- (٦) الذمى على المشركين لعبادتهم الأوثان والأصنام مع بيان أنها لا تفيدهم يوم القيامة شيئاً .
- (٧) الحجاج والجدل بين الأتباع والمتبوعين من الكافرين يوم القيامة وإلقاء كل منهما التبعة على الآخر .
- (٨) بيان أن المترفين في كل أمة هم أعداء الرسل، لاعتزازهم بأموالهم وأولادهم، واعتقادهم أنهم ما آتاهم ربهم ذلك إلا لرضاه عنهم ثم رده سبحانه عليهم .
- (٩) سؤال الملائكة أمام المشركين بأنهم هل طلبوا منهم عبادتهم؟ ليكون في رددهم ما يكفي في تبيكيتهم .
- (١٠) مقال المشركين عند سماع القرآن وادعائهم أنه ليس بوحى من عند الله بل الداعى مفتر ليصد الناس عن دين الآباء والأجداد .
- (١١) عظمتهم بما حل بين قلوبهم من الأمم .
- (١٢) أمرهم بالتأمل والتدبر في الأدلة التي أمامهم لعلمهم يرعون عن غيرهم .
- (١٣) إثبات أن الرسول نذير مبين، لا مفتر ولا مجنون .
- (١٤) الرسول لا يطلب أجراً على دعوته، بل أجره على الله .
- (١٥) طلب المشركين يوم القيامة أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسول ويعملوا صالح الأعمال، ثم الرد عليهم بأن ذلك قد فات أوانه وأن لا سبيل إلى تحقيقه .

سورة فاطر — سورة الملائكة

هى مكية نزلت بعد سورة الفرقان وآيها خمس وأربعون .
ومناسبتها لما قبلها :

إنه لما ذكر سبحانه فى آخر سابقها هلاك المشركين وإنزالهم منازل العذاب —
لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره كما جاء فى قوله : « قَطُّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي
أَجْنِحَةٍ مِّثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (١) .

شرح المفردات

فطر الشيء : أوجده على غير مثال سابق ، رسلا : أى وسائط بينه وبين أنبيائه
يبلغون عنه رسالاته ، مثنى وثلاث ورباع : أى اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة .

الإيضاح

(الحمد لله فاطر السموات والأرض) أى له سبحانه الشكر فقد أبدع خلق
السموات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق وأحكم تديرهما على أتم نظام ،
كما قيل : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

(جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى جاعل الملائكة
وسائط بينه وبين أنبيائه يبلغون إليهم رسالاته — ذوى أجنحة إما اثنين اثنين، وإما
ثلاثة ثلاثة ، وإما أربعة أربعة .

والأجنحة فى العالم المادى تساعد على الطيران ، وكثرتها تومئ إلى السرعة ، وهى فى عالم الأرواح ترشد إلى القدرة على السرعة فى تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالات ربه إلى أنبيائه .

وفى هذا إيماء إلى أن الملائكة تتفاوت أقدارهم وقوامهم عند الله تعالى على حسب استعدادهم الروحى . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته له ستائة جناح » وفى هذا رمز إلى قوة استعداده الروحى وقربه من الملأ الأعلى وسرعة تنفيذه ما يؤمر به .

(يزيد فى الخلق ما يشاء) أى يزيد فى خلق الأجنحة ما يشاء، كما يزيد فى أرجل الحيوان ما يشاء حتى لقد تبلغ فوق العشرين أحياناً ، وهكذا يزيد فى تفاوت العقول والنفوس والقوى المادية والمعنوية كما قيل .

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمرنا

(إن الله على كل شىء قدير) فيزيد كل ما هو أهل للزيادة وما هو مستعد لها، حسية كانت أو معنوية ، فلا يمتنع عليه فعل شىء أراده ، لما له من القدرة والسلطان على كل شىء .

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

شرح المفردات

يفتح : يعطى ، ورحمة : أى نعمة حسية كانت أو معنوية كرزق وصحة وأمن وعلم وحكمة ، إلى نحو ذلك مما لا يحاط به .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة النافذة - أيد ذلك بما يشاهده كل أحد في نفسه من الضيق حيناً والسعة حيناً آخر ، مع العجز عن دفع البؤس إن وجد ، وجلب النعمة لو أراد .

الإيضاح

مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه ، فما يعطى من خير فلا يستطيع أحد منعه ولا إمساكه ، وأى خير يمسه فلا يبسطه ولا يفتح له فأنح ، لأن الأمور كلها بيده ، ومنه البذل والعطاء ، والمنع والإمساك .

وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي منها الفتح والإمساك ، وهو الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

وفى الآية عظة للناس بالإقبال إلى ربهم والتوجه إليه فى قضاء حاجهم والتوكل عليه فى جميع مآربهم ، والإعراض عما سواه من جميع خلقه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ » .

روى أحمد عن المغيرة بن شعبه أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من الصلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجُدِّ منك الجُدُّ » .

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض وملء ما شئت من شىء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ،

أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

وأخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال : أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسى : (١) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يسك لها وما يسك فلا مرسل له من بعده . (٢) وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله . (٣) سيجعل الله بعد عسر يسرا . (٤) وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) .

شرح المفردات

أنى تؤفكون : أى من أين تصرفون عن توحيد الخالق مع الاعتراف بأنه وحده هو الرازق ، وتشركون المنحوت : بمن له الملكوت .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه وحده هو المنعم بما يشاهده كل أحد في نفسه - أمر بذكر نعمه بالاعتراف بها والشكر عليها .

الإيضاح

أيها الناس راعوا نعم الله واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها ، وخصوا خالقها بالعبادة والطاعة فهو الذى بيده أرزاقكم وأقواتكم ، فإلى أى وجه تصرفون عنه بعد أن استبان الحق ، ووضح السبيل .

وإخلاصة — احفظوا نعم الله وأدوا حقها ولا تشركوا به سواء من الأصنام والأوثان ، بعد وضوح الدليل وسطوع البرهان .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا
إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأصل الأول وهو التوحيد — ثنى بذكر الأصل الثانى وهو الرسالة
وسلى رسوله عن تكذيب قومه له بأنه ليس ببدع بين الرسل فقد كذب كثير منهم
قبله ، فعليه أن يتأسى بهم ويصبر على أذاهم ؛ ثم ذكر الأصل الثالث وهو البعث
والنشور مع بيان أنه حق لا شك فيه ، وأنه لا ينبغي أن يقبلوا فيه وساوس الشيطان
فإنه عدو لبنى آدم ولا يرشدهم إلا إلى الذنوب والآثام التى توصلهم إلى عذاب النار
وبئس القرار .

الإيضاح

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أى وإن
استمر قومك على تكذيبك فيما بلغته إليهم من الحق المبين ، بعد أن أقمت لهم الحجج
وضربت الأمثال ، فتأسى بمن سبقك من الرسل فقد صبروا على ما أوذوا حتى أتاهم
نصرنا ولا مبدل لكلمات الله .

وإلى الله مرجع أمرهم فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب .
ثم ذكر أن البعث آت لا ريب فيه فقال :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ)
 أى إن وعد الله بالحشر والجزاء حق لا شك فيه ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فيذهلكم
 التمتع بمتعها ، ويلهيكم التلهي بزخارفها عن تدارك ما ينفعكم يوم حلول الميعاد اتباعا
 لوساوس الشيطان .

والخلاصة — إنكم لا تغتروا بالحياة الدنيا وتتركوا فعل ما أمرتم به وتعملوا
 ما نهيتم عنه .

ثم ذكر العلة في عدم الاغترار بالشيطان فقال :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) أى إن الشيطان معطن عداوته لكم
 بوسوسته ، فعادوه أتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يفرمكم به .

ثم ذكر أعماله ودعوته أتباعه إلى الغواية والضلالة فقال :

(إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) أى ما غرضه من دعوة شيئته إلى
 اتباع الهوى والركون إلى لذات الدنيا إلا إيضالهم وإقاؤهم في العذاب الدائم من
 حيث لا يشعرون .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ
 عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)

شرح المفردات

الحسرات : واحدها حسرة ، وهى النعم على ما فات والندم عليه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان أن الشيطان يضل أتباعه ويدعوهم إلى النار - ذكر هنا أن حزب الشيطان له العذاب الشديد ، وأن حزب الله له المغفرة والأجر الكبير ، ثم بين أن الضلال والهداية بيد الله على حسب ما يعلم من الاستعداد وصفاء النفوس وقبول الهداية ، أو تدسيتها وارتكابها الإجرام والمعاصي ، فلا تحزن على ما ترى من ضلال قومك وأتباعهم. لوساوس الشيطان ، والله عليم بحالهم وسيجازيهم بما يستحقون .
أخرج جويبير عن الضحاك أن الآية نزلت في عمر رضى الله عنه وأبى جهل حيث هدى الله عمر وأضل أبا جهل .

الإيضاح

(الذين كفروا لهم عذاب شديد) أى الذين كفروا بالله ورسوله لهم عذاب من الله شديد فى النار، من جراء كفرهم وإجابتهم دعوة الشيطان واتباعهم خطواته .
(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) أى والذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه - لهم مغفرة من الله لذنوبهم وأجر كبير كفاء ما ملئوا به قلوبهم من عامر الإيمان ، وأخبتوا إلى ربهم بصلاح الأعمال .
ثم بين البعد ما بين الفريقين واختلاف حال الفئتين فقال :

(أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) أى أفمن حسن له الشيطان سبب الأعمال من معاصى الله والكفر به وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان ، فحسب سبب ذلك حسنا ، وظن قبيحه جميلا ، ألك فيه حيلة ؟

ثم ذكر السبب فى اتجاه كل من الفريقين إلى ما اتجه إليه فقال :

(فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) أى فإن ذلك الإضلال بمشيئة الله تعالى التابعة لعلمه باستعداد النفوس للخير والشر ، وقد تقدم ذلك غير مرة فلا حاجة إلى الإطناب فيه .

ثم أتى بما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أى فلا تأسف على عدم إيمانهم وإحابتهم دعوتك ، فإن الله حكيم فى قدره ، فهو يضل من يضل من عباده ويهتدى من يشاء ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة والعلم التام باستعداد النفوس إما بإحابتها إلى ربها وإنابتها إليه وميلها إلى صالح العمل ، وإما بتدسيستها وحجبها لاجتراح السيئات وارتكاب الموبقات ، ونحو الآية قوله : «فَلَمَّا كَبَّرَ بِأَخِيحُ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنَّ لِمَ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا» .

ثم هدد الكافرين على قبيح أعمالهم فقال :

(إن الله عليم بما يصنعون) أى إن الله عليم بما يصنعون من القبائح فيجازيهم عليه بما يستحقون ، وفى هذا وعيد تنهد منه الجبال وتندك منه الأرض دكا .

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُشِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ الذُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

أرسل : أى أطلق وأوجد من العدم ، تشير : أى تحرك ، مييت بمعنى

قاله محمد بن يزيد وأنشد :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء

ويرى بعضهم أن الميت بالتخفيف هو الذي مات، والميت بالتشديد، والمات هو الذي لم يمّت بعد وأنشد :

ومن يك ذاروح فذلك ميت وما الميت إلا من إلى القبر يحمل
والمراد أنه لا نبات فيه ، والنشور : إحياء الأموات يقال نشر الله الميت وأنشره ، أي أحياه ، العزة : أي الشرف والمنعة من قولهم أرض عزاز : أي صلبة ، والكلم الطيب : هو التوحيد أو الذكر أو قراءة القرآن ، وصعوده إلى الله قبوله ، والعمل الصالح هو ما كان بإخلاص ، يرفعه : أي يقبله ، يمكرون : أي يعملون على وجه المكر والخديعة ، والسيئات : المنكرات السيئات كأن يراءوا المؤمنين في أعمالهم يوهمونهم أنهم في طاعة الله ، يبور : أي يفسد من البوار وهو الهلاك ، أزواجاً : أي أصنافاً ذكراً وإناثاً ، يعمر من معمر : أي يمد في عمر أحد ، في كتاب : أي في صحيفة المرء .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر عز اسمه أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة ، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم في ذلك اليوم - أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم لا ريب فيه ، وضرب المثل الذي يدل على تحققه لاحتماله ، ثم ذكر أن من يريد العزة فليطع الله ورسوله ولا يتعزز بعبادة الأصنام والأوثان كما أخبر الله عنهم « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه ويجازى عليه ؛ ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم فإله يفسد عليه تدييره ويجازيه بما عمل شر الجزاء ، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد في الآفاق من دلائل القدرة ، ذكر دليلاً عليه بما يرى في الأنفس من اختلاف

أطوارها ، فقد كانت ترابا ثم نظفة ثم وضعت في الأرحام إلى أن صارت بشرا سويا ، ومنها ما يمد في عمرها ، ومنها ما يُحترَم قبل ذلك ، كما تدل عليه المشاهدة ، وكل ذلك يسير على الله .

الإيضاح

(والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) أى أفلا تتدبرون وتعقلون فتعلموا أن من أوجد الرياح بعد أن لم تكن ثم جعلها تسير السحاب الثقال فتنزله منها الغيث إلى الأرض الجُرُزُ التي لا نبات بها فتحيا بعد أن كانت ميتة وتهتز وتربو وتذبت كل زوج بهيج - أفليس ذلك القادر الحكيم الذي أحيا ميت الأرض بقادر على أن يحيي الموتى بعد بلاها ، وبعد أن كانت عظاما نخرة ؟ إنه على كل شيء قدير .

وعن أبي رزين قال : « قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال صلى الله عليه وسلم يا أبا رزين أما مررت بوادى قومك مُمَجِّلا ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت بلى ، قال صلى الله عليه وسلم فكذلك يحيي الله الموتى . »

(من كان يريد العزة فله العزة جميعا) أى من كان يود أن يكون عزيزا في الدنيا والآخرة فليزِم طاعة الله تعالى ، فإن بها تنال العزة إذ لله العزة فيهما جميعا .

(إليه يصعد الكلم الطيب) أى إنه سبحانه يقبل طيب الكلام كالتوحيد والذكر وقراءة القرآن ، ومن الذكر: سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

(والعمل الصالح يرفعه) صلاح العمل بالإخلاص فيه ، وما كان كذلك قبله الله وأثاب عليه ، وما لا إخلاص فيه فلا ثواب عليه بل عليه العقاب ، فالصلاة

والزكاة وأعمال البر إذا فعلت مراعاة للناس لا يتقبلها الله كما قال سبحانه « قَوْلِي لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » .

وروى عن ابن عباس أنه قال : الكلام الطيب ذكر الله ، والعمل الصالح أداء

فرائضه . وعن الحسن وقتادة : لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ، من قال وأحسن
قبل الله منه .

وإخلاصة — إن القول إذا لم يصحبه عمل لا يقبل ، وأنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يزين ما يقول فعمال

وإذا وزنت فعاله بمقاله فتوازننا فإخاء ذاك جمال

وقال ابن المقفع : قول بلا عمل كثير يد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ،
وقوس بلا وتر .

وبعد أن ذكر أن العمل الصالح يصعد إلى الله ، ذكر أن المرائين لا يقبل منهم
عمل ، ولهم عذاب شديد عند ربهم .

(والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد) أى والذين يمكرون المسكر السيء
بالمسلمين بأن يعملوا كل ما يكون سبباً في ضعف الإسلام والحط من قدره والإفساد بين
بينهم حتى يتحى أثره من الوجود كما فعلت قريش في دار الندوة ، إذ تدارست الرأى
في شأن النبي صلى الله عليه وسلم بحبسه أو قتله أو إجلائه من مكة لهم العذاب الشديد
يوم القيامة .

(ومكر أولئك هو يبور) أى ومكر هؤلاء المفسدين يظهر زيفه عن قريب
لأولى البصائر ، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه
وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها إن خيراً فخير وإن شراً
فشر ، فالمرأى لا يروج أمره ولا يستمر إلا على غيب ، أما المؤمنون المنفرون
فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .
ثم ذكر دليلاً على صحة البعث بما يرى في الأنفس فقال :

(والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً) أى والله خلق الناس
من النطفة ، والنطفة من الغذاء ، والغذاء ينتهى آخرها إلى الماء والتراب ، فهم من تراب
صار نطفة ، ثم جعلهم أصنافاً ذكرانا وإناثاً بقدر معلوم بحيث يكاد الفريقان
يستويان عدداً ، ولو لم يكن كذلك لفتى الإنسان والحيوان ، إذ حفظ النوع لا يتم

إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وما تحمل من أثنى ولا تضع إلا بعلمه) أى ولا تحمل الأثنى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه ، ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هى صاحبة السلطان فى هذا العالم ، لم يتم التوازن فى العدد بين الزوجين فىبقى الإنسان والحيوان . ونحو الآية قوله : « اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » . (وما يعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) أى لا أحد يقضى له بطول العمر إلا وهو بالغ ما قدر له ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص عنه ، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له فى الكتاب الذى كتب له ، وذلك لحفظ الموازين فى الأرض حتى ينتظم العمران ، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل وساء حال الكون ، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب ، ومن ثم تفاوتت الأعمار فى جميع الأمصار وكانت بمقدار ، واعتدل النظام بالمرض والموت والوباء والحرب .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن ذلك النظام البديع للعالم - هين على الله لعلمه الشامل ، وعدم خفاء شيء عليه .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ: هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ، وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَتَبْتَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَمَّا كُمُ تَشْكُرُونَ (١٢)
يُوجِبُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوجِبُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا

يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) .

شرح المفردات

عذب : أى حلوا لذيق طعمه ، فوات : أى كاسر للعطش مزيل له ، سائغ : أى سهل المحذارة لخلوه مما تعافه النفس ، أجاج : أى شديد الملوحة والحرارة ، حلية : أى لؤلؤا ومرجانا ، مواخر : أى شاقات الماء حين جريانها ، يولج : أى يدخل ، والقطمير : لعافة النواة ، وهى القشرة البيضاء الرقيقة التى تكون بين التمرة والنواة ، يكفرون بشرككم : أى يحدون بإشراككم إياهم وعبادتهم لهم ، ولا ينبئك مثل خبير : أى ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل الخبير به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها - أردف هذا ذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة فى الجنس المختلفة فى المنافع ، فهذا ماء عذب زلال يجرى فى الأقاليم والأمصار ، والبرارى والقفار ، يُسقى منه الإنسان والحيوان وينبت النبات الذى فيه غذاء لها ، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار ويستخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، ومن كل منهما نأكل لما طريا فيه لذة للآكلين ، وهذان ليل ونهار ، ضياء وظلام ، يدخل أحدهما فى الآخر فيأخذ هذا من طول ذلك ، ويزيد هذا فى قصر ذلك فيعتدلان ، ثم يتقارضان صيفا وشتاء ، وسخر الشمس والقمر والنجوم

الثواب والسيارات ، كل يجري بمقدار معين وعلى نهج ثابت لا يتغير ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم .

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان فلا يملكون شروى تغير ولا يسمعون لكم دعاء ، ولا يستجيبون لدعوة ، ويوم القيامة يتبرءون منكم إذا دعوتهم واستشفعتم بهم ، ولا ينبيئك بهذا إلا الخبير وهو ربك العليم بما كان وما سيكون .

الإيضاح

(وما يستوى البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) أى وما يعتدل البحرين فيستويان : أحدهما عذب سائغ شرابه يجري فى الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصفار على حسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار . وثانيهما ملح ساكن تسير فيه السفن السكبار .

(ومن كل تأكلون لحاطريا) أى ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطرى فضلا من الله ومنة .

(وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أى وتستخرجون الدرّ والمرجان من الملح الأجاج ومن العذب الفرات ، وتجرى السفن فى كل منها تشقها شقا بجيازمها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقاتكم من بلد إلى آخر فتدفع عنكم المخمصة وتسدّ العوز .

لعلكم تشكرونه سبحانه على تسخيرها لكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتذهبون فيها إن أردتم .

ولما كان بين الفلك فى البحر والشمس والقمر فى مدارها مناسبة ، فإن كلا منهما سارح فى تلك العوالم الشاسعة - أردفه ذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر فقال :

(يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يدخل الليل فى النهار فيكون

النهار أطول من الليل ساعة فأكثر ، ويدخل النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار كذلك .

(وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) أى وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم ورحمة بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ولتسكنوا في الليل وتبتغوا فضلا منه في النهار ولا يزالان يجريان هكذا لأجل معلوم لا يقصران دونه ولا يتعديانه ، وهو يوم القيامة .

(ذلكم الله ربكم له الملك) أى ذلكم الذى يفعل هذه الأفعال هو معبودكم الذى لاتصلح العبادة إلا له ، وهو ربكم الذى له الملك التام والسلطان المطلق والقهر والجبروت ، وكل من فى السموات والأرض فهو عبده وتحت قبضته وبطشه .

(والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) أى والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان لا يملكون شيئا ولو كان حقيرا ، بل هم ملك لخالق القوى والقدرة . ثم أكد ما سلف مبينا حقارة شأنهم وعظيم ضعفهم بقوله :

(إن تدعوم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أى وإن تدعوا هذه الآلهة من دون الله لاتسمع لكم دعاء ، لأنهم جماد لا أرواح لهم ، ولو سمعوا ما قدروا أن ينفعوك ويستجيبوا لشيء مما تطلبون .

والخلاصة — كيف تعبدون من لا ينفع ولا يضر وتدعون من بيده النفع والضرر ، وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون .

وبعد أن نفى المقتضى للعبادة ، وهو محجى النفع والضرر من قبلهم ، ذكر المانع من عبادتهم وهو كفرهم بهم يوم القيامة فقال :

(ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى وهم يوم القيامة يتبرءون منكم ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون ، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وما زينته لكم شياطينكم . ونحو الآية قوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا : كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

ثم أكد صدق ما حكاه عنهم من أحوالهم بقوله :

(ولا ينبئك مثل خبير) أى ولا يخبرك عن أمر هذه الآلهة وعن أمر عبيتها يوم القيامة إلا ذو خبرة بأمرها وأمرهم ، وهو الله الذى لا يخفى عليه شيء كان ، أو سيكون فى مستأنف الزمان .

يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَتْهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ
يَذْهَبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) .

شرح المفردات

ولا تزر : أى ولا تحمل ، وازرة : أى نفس آثمة ، وزر أخرى : أى إثم نفس
أخرى ، والمثقلة : النفس التى أثقلتها الذنوب والأوزار ، ذا قربى : أى ذا قرابة من
الداعى ، بالغيب : أى غائبا عنهم ، وتزكى : أى تظهر من دنس الأوزار والذنوب ،
والمصير : المرجع والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن ملك السموات والأرض له ، وأن ما يدعون من دونه
من الأصنام والأوثان لا يملك شيئا ولا يجلب نفعا ولا يدفع ضرا - أعقب هذا بما هو
فذاكرة لما تقدم وكان النتيجة له ، بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه ، فهو الذى
تجب عبادته وحده ، لأن النفع والضرر بيده لا شريك له ؛ ثم بين أنه يوم القيامة

لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا تستطيع دفع ضررها ولو كانت ذات قرابة منها ، ثم أرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما تجدى نفعا لدى من يخشى الله ويخاف عقابه ، وأن من يتزكى فإنما يتزكى لنفسه ونفع ذلك عائد إليه ، وإلى الله عاقبة الأمور كلها ومردّها إليه .

الإيضاح

(يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد) أي أتم أيها العباد أولو الحاجة والفقر إلى خالقكم ورازقكم ، فإياه فاعبدوا ، وإلى رضاه فسارعوا ، وهو الغني عن عبادتكم وعن غيرها ، وهو المحمود على نعمه ، فكل نعمة بكم وبسواكم فهي منه ، فله الحمد والشكر على كل حال .

والخلاصة — أنتم في حاجة إليه وهو ذو الغنى وحده لا شريك له ، والمحمود في جميع ما يقول ويفعل ويشرع لكم ولغيركم من الأحكام .
ثم أرشد إلى غناه وإلى قدرته الكاملة بقوله :

(إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) أي إن يشأ ربكم أن يهلككم أهللكم ، لأنه هو الذي أنشأكم من غير حاجة به إليكم ، ويأت بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون بأمره وينتهون عما نهاهم عنه ، وما ذلك بصعب على الله الخالق لجميع عباده ، بل هو يسير هين عليه .

وليس يخاف ما في هذا من تهديد ووعد ، وزجر وتأييب .

ثم أخبر عن أحوال يوم القيامة وأهوالها وشدائدها بقوله :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي ولا تحمل نفس مذنبية ذنب نفس أخرى ،

بل تحمل كل نفس وزرها فحسب ، ولا تنافي بين هذا وما جاء في سورة العنكبوت

من قوله سبحانه : « وَلِيَحْمِلْنَ أُنْقَالَهِنَّ وَأُنْقَالَهِنَّ مَعَ أُنْقَالِهِنَّ » فإن هذا في الضالين

المضالين وهم يحملون إثم إضلالهم مع إثم ضلالهم ، وكل ذلك آثامهم لا آثام غيرهم .

(وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) أى وإن تسأل نفس ذات ثقل من الذنوب ، من يحمل عنها ذنوبها ؟ لم تجد من يحميها إلى ما تتطلب ولو كان المدعو ذا قرابة لها كآب أو ابن ، إذ كلُّ مشغول بنفسه ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

ونحو الآية قوله : « لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا » وقوله : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

قال عكرمة : إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بُنَيَّ : أى والد كنت لك ؟ فتثنى خيرا فيقول له يا بنى إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجه فيقول يا فلانة : أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا فيقول لها إني أطلب إليك حسنة واحدة تهينها لى لعلى أنجو بها مما ترين ، فتقول ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إني أتخوف مثل الذى تتخوف .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عن عدم قبولهم دعوته وإصرارهم على عنادهم فقال :

(إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) أى إنما يجدى النصح والإندار لدى من يخشون الله ويخافون شديد عقابه يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك ، بل لإيمانهم بما أتيت به وتصديقهم لك فيما أنبأت به عن ربك ، فهؤلاء هم الذين ينفعهم إندارك ويتعظون بمواعظك ، لا من طمع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون - إلى أنهم يؤدون الصلاة المفروضة عليهم وقيمونها على مارسمه الدين ،

فهى التى تطهر قلوبهم وتقر بهم من ربهم حين مناجاتهم له كما جاء فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والخلاصة — إنه إنما ينفع إنذارك وتخويفك من يخشى بأس الله وشديد عقابه دون من عداهم من أهل التمرد والعناد .

ثم حث على الأعمال الصالحة وأبان أن فائدتها عائدة إليهم فقال :

(ومن تزكى فإنما يتركى لنفسه وإلى الله المصير) أى ومن يتطهر من أدناس الشرك وأوضار الذنوب والمعاصى فضع ذلك عائد إليه ؛ كما أن من يتدسّى بالذنوب والآثام فضع ذلك راجع إليه ، وإلى الله مصير كل عامل وهو مجازيه بما قدم من خير أو شر على ما جرى وأئبل لنفسه .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠)
وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) .

شرح المفردات

الحرور : السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار ، خلا : أى سلف ومضى ، ونذير : أى منذر وخوف وهو النبي ، والبيّنات : أى المعجزات

الدالة على صدقهم فيما يدعون ، والزرير : واحدها زبور وهو الكتاب ، التكبير : الإنكار بالعقوبة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه طريق الهدى وطريق الضلالة وذكر أن المستعد للإيمان قد اهتدى بهدى النذير ، والجاحد المعاند قسا قلبه ولم يستفد من هديه - ضرب مثلاً به تنجلى حاليهما ، ثم ذكر أن الهداية بيد الله يمنحها من يشاء وأن هؤلاء المشركين كالموتى لا يسمعون نصيحة ولا يهتدون بعظة ، وأن الله لم يترك أمة سدى بل أرسل الرسل ؛ فمنهم من أجاب دعوة الداعى ونجا ، ومنهم من استكبر وعصى ، وكانت عاقبته الوبال والنكال فى الدنيا والنار فى العقبى .

الإيضاح

(وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور)
أى وما يستوى الأعمى عن دين الله الذى ابتمعت به نبيه صلى الله عليه وسلم والبصير الذى قد أبصر فيه رشده فاتبع محمداً صلى الله عليه وسلم وصدقه وقبل عن الله ما ابتمته به ، وما تستوى ظلمات الكفر ونور الإيمان ولا الثواب والعقاب .

ثم ضرب مثلاً آخر لها فقال :

(وما يستوى الأحياء ولا الأموات) أى وما يستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة كتابه وتنزيله ، وأموات القلوب بغلبة الكفر عليها حتى صارت لاتعقل عن الله أمره ونهييه ومعرفة الهدى من الضلال وكل هذه أمثال ضربها الله للمؤمن والإيمان والكافر والكفر .

ونحو الآية قوله : « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ » وقوله : « مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ » .

والخلاصة — إن المؤمن بصير سميع نير القلب يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا وفى الآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم يمشى فى ظلمات لاخروج له منها ، فهو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى حرور وسوم ، وحيم وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم .

ثم بين أن الهداية والتوفيق بيده سبحانه وحده فقال :

(إن الله يسمع من يشاء) أى إن الله يهدى من يشاء إلى سماع الحجية وقبولها

بخلق الاستعداد فيه للهداية .

ثم ضرب مثلا لهؤلاء المشركين وجعلهم كالأموات لا يسمعون فقال :

(وما أنت بسمع من فى القبور) أى فكما لا تقدر أن تسمع من فى القبور

كتاب الله فتهديهم به إلى سبيل الرشاد ، لا تقدر أن تنفع بمواظب الله وحججه من كان ميت القلب لا يستطيع معرفة الله ولا فهم كتابه وواضح حججه .

والخلاصة — كما لا ينتفع الأموات بعد أن صاروا إلى قبورهم وهم كفار بالهداية

والدعوة إليها — كذلك هؤلاء المشركون لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم .

ثم بين عمل الرسول فقال :

(إن أنت إلا نذير) أى ما أنت إلا منذر عقاب الله هؤلاء المشركين الذين

طبع على قلوبهم ، ولم تكلف هدايتهم وقبولهم ما حجتهم به ، فإن ذلك بيده تعالى لا بيدك ولا بيد غيرك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك .

ثم بين سبحانه أنه ليس نذيرا من تلقاء نفسه ، بل بإذن ربه وإرادته وأنه

ما جاء إلا بالحق فقال :

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى إنا أرسلناك أيها الرسول بالإيمان بى

وحدى ، وبالشرائع التى فرضتها على عبادى ، مبشرا بالجنة من صدقك وقيل منك

ما حجت به من عندى ، ونذيرا بعقاب من كذبتك ورد عليك ما أوحى به إليك .

ثم بين فضله سبحانه على عباده ورحمته بهم وأنه لم يتركهم دون أن يبين لهم طريق الهدى والضلال فقال :

(وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) أى وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر وأزاح عنهم العليل كما قال : « لِكَيْلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » وقال : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » .

ثم سلى رسوله عما يلاقيه من قومه من الإصرار على العناد والتكذيب وأبان له أنه ليس ببعد من بين الرسل فقال :

(وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلكم بالبينات وبالزبور وبالكتاب المنير) أى وإن يكذبك أيها الرسول مشركو قومك فلا تبتئس بما يفعلون ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلكم الذين جاءوهم بالمعجزات الباهرة والأدلة القاطعة وبالكتب الواضحة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داود ، وبعد أن سلاه هدد من خالفوه وعصوه بمثل ما فعل بمن قبلهم من الماضين فقال :

(ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) أى وبعد أن أتاكم الرسل بما أتوكم كذبوهم فيما جاءوهم به فأخذتهم بالعقاب والنكال ، فانظر كيف كان شديد عقابي بهم وإنكارى عليهم ، فإن تمادى قومك وأصروا على إنكارهم واستمروا في حمايتهم حل بهم مثل ما حل بأولئك ، فتلك سنة الله لا تبديل لها ولا تغيير .

« سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا
 أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)
 وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
 مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)

شرح المفردات

ألوانها : أى من أحمر إلى أصفر إلى أخضر إلى نحو ذلك ، الجدد : واحدها
 جدة (بالضم) وهى الطريق المختلفة الألوان فى الجبل ونحوه ، والغرابيب : واحدها
 غريب وهو شديد السواد ؛ يقال أسود غريب وأبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان ،
 وفى الحديث « إن الله يبعث الشيخ الغريب » يعنى الذى يخضب بالسواد ، وقال
 امرؤ القيس فى وصف فرسه :

العين طاححة واليد ساجحة والرجل لافحة والوجه غريب

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل وحدانيته وعظيم قدرته التى أعرض عنها المشركون
 عنادا واستكبارا - أردف ذلك ذكر ما يرونه من المشاهدات الكونية المختلفة
 الأشكال والألوان لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم وينبه عقولهم إلى الاعتبار
 بما يرون ويشاهدون .

الإيضاح

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا) يقول
 سبحانه منها إلى كمال قدرته : أَلَمْ تَشَاهِدْ أَيْهَا الرَّائى أَنَا خَلَقْنَا الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنَ الشَّيْءِ

الواحد ، فأزلنا الماء من السماء وأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وطعمها وروائحها كما هو مشاهد من ألوان الثمار من أصفر إلى أحمر إلى أخضر إلى نحو ذلك .

ونحو الآية قوله : « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَمَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْصَلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

(ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود) أى وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان من بيض إلى حمر إلى سود غرايب كما هو مشاهد ، وفي بعضها طرائق مختلفة الألوان أيضا .

(ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) أى وكذلك الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان فى الجنس الواحد ، بل الحيوان الواحد قد يكون فيه ألوان مختلفة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » .

ولما عدد آياته وأعلام قدرته وآثار صنعه بين أنه لا يعرف ذلك حق المعرفة إلا العلماء بأسرار الكون العالمون بدقائق صنعه تعالى ، فهم الذين يفهمون ذلك حق الفهم ويعلمون شديد بطشه وعظيم قهره فقال :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى إنما يخاف الله فينتقى عقابه بطاعته - العالمون بعظيم قدرته على ما يشاء من الأشياء وأنه يفعل ما يريد ، لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته تخافه ورهبه خشية أن يعاقبه .

وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : العالم بالرحمن من عباده ، من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله ، وحرّم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسبه بعمله .

وقال الحسن البصرى: العالم من خشى الرحمن بالغيب، ورجب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الآية .

وعن عائشة قالت : «صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فخطب فحمد الله ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » ، أخرجه البخارى ومسلم .

ثم بين سبب خشيتهم منه فقال :

(إن الله عزيز غفور) أى إن الله عزيز فى انتقامه ممن كفر به ، غفور لذنوب من آمن به وأطاعه ، فهو قادر على عقوبة العصاة وقهرهم : وإثابة أهل الطاعة والعمو عنهم ، ومن حق المعاقب والمثيب أن يخشى .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيُرِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) .

شرح المفردات

يتلون : أى يتبعون من قولهم تلاه إذا تبعه ، لأن التلاوة بلا عمل لانفع فيها ، وقد ورد : «رُبَّ قَارِئٍ لِلْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ» والمراد من التجارة المعاملة مع الله لنيل الثواب ، وتبور : أى تكسد .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه أن العلماء هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه - أردف ذلك ذكر حال العالمين بكتاب الله العاملين بما فرض فيه من أحكام كإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة في السر والعلن ، وأبان أن هؤلاء يرجون ثوابا من ربهم كفاء أعمالهم ، بل أضعاف ذلك فضلا من ربهم ورحمة منه ، ويطمعون في غفران زلاتهم ، لأنه الغفور الشكور لهم على ما أحسنوا من عمل .

الإيضاح

إن الذين يتبعون كتاب الله ويعملون بما فرض فيه من فرائض ، فيؤدون الصلاة المفروضة لمواقيتها على ما رسمه الدين بإخلاص وخشية من ربهم ، ويتصدقون بما أعطاهم ربهم من الأموال سرا وعلانية بلا بسط ولا إسراف - هؤلاء قد عاملوا ربهم راجين ربح تجارتهم بنيلهم عظيم ثوابه كفاء ما قدموا من عمل مع الإخبات والإناية إليه ، وابتغون فضلا منه ورحمة فوق ذلك ، وغفرانا لما فرط من زلاتهم ، وما اجتروا من سيئاتهم ؛ فالله هو الغفور لما فرط من المطيعين من الزلات ، الشكور لطاعتهم ، فجازيهم عليها الجزاء الأوفى .

ونحو الآية قوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
 إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ
 عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ
 ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
 أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ
 مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ (٣٥)

شرح المفردات

الكتاب : هو القرآن ، مصداقاً لما بين يديه : أى لما تقدمه من الكتب السماوية ، خبير بصير : أى محيط بيوطن أمورهم وظواهرها ، مقتصد : أى عامل به تارة ، ومخالف له أخرى ، سابق : أى متقدم إلى ثواب الله راجح دخول جنته ، بالخيرات أى بسبب ما يعمل من الخيرات والأعمال الصالحة ، بإذن الله : أى بتوفيقه وتيسيره ، والحزن : هو الخوف من محذور يقع فى المستقبل ، دار المقامة : أى دار الإقامة التى لا انتقال عنها أبداً ، وهى الجنة ، نصب : أى تعب ، وانغوب : أى كلال وفطور .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم - أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب ، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب ، ثم قسم هؤلاء الذين أورشوا الكتاب أقساماً ثلاثة : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين ، وأنهم يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار وأنهم يحملون فيها أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير ، ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، ويقولون : إنه أحلنا داراً لا نصب فيها ولا تعب .

الإيضاح

(والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصداقاً لما بين يديه) أى إن القرآن الذى أنزلناه عليك هو الحق من ربك ، وعليك وعلى أمتك أن تعمل به وتتبع ما فيه ، دون غيره من الكتب التى أوحيت إلى غيرك ، وهو مصدق لما مضى بين يديه مما أنزل على الرسل من قبله فصار إماماً لها .

(إن الله بعباده خبير بصير) أى إن الله خبير بأحوال عباده ، بصير بما يصلح

لهم فيشرع لهم من الأحكام ما يناسب أحوال الناس في كل زمان ومكان ، ويرسل من الرسل من هو حقيق بتبليغ ذلك للناس « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .
 (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) أى أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة التي هي خير الأمم بشهادة الكتاب « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » وجعلناهم أقساما ثلاثة :

(١) ظالم لنفسه مفرط في فعل بعض الواجبات مرتكب لبعض المحرمات .

(٢) مقتصد مؤد للواجبات تارك للمحرمات تقع منه تارة بعض الهفوات ، وحيناً يترك بعض المستحسنات .

(٣) سابق بالخيرات بإذن الله ، يقوم بأداء الواجبات والمستحبات ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

والخلاصة — إن الأمة في العمل أقسام ثلاثة : مقصر في العمل بالكتاب مسرف على نفسه . ومتردد بين العمل به ومخالفته . ومتقدم إلى ثواب الله بعمل الخيرات وصالح الأعمال بتيسير الله وتوفيقه .

وقال الحسن : الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته ، والمقتصد الذي استوت حسناته وسيئاته ، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته .

(ذلك هو الفضل الكبير) أى ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم من الله لا يقدر قدره .

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال السابقين بين جزاءهم وما لهم بقوله :

(جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير) أى بساتين إقامة يدخلها هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب واصطفيناهم من عبادنا يوم القيامة ، ويحلون فيها أسورة من ذهب ولآلى ويكون لباسهم حريرا .

(وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) أى ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الخوف من كل ما نحذر ، وأراحنا بما كنا نتخوف من هموم الدنيا والآخرة . ثم ذكر السبب فى ذهاب الحزن عنهم فقال :

(إن ربنا لغفور شكور) أى إن ربنا لغفور لذنوب المذنبين ، شكور للطيعين ، روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » .

والخلاصة — إنه أذهب عنهم الحزن من خوف العاقبة ومن أجل المعاش والوساوس الشيطانية .

ولما ذكر سرورهم وكرامتهم بتخليتهم بالحلى وإدخالهم الجنات — ذكر سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها . فقال :

(الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها غوب) أى إن ربنا لغفور شكور ، لأنه أنزلنا الجنة التى لا تتحول عنها ولا تقلة ، ولا يصيبنا فيها تعب ولا وجع ولا إعياء ولا فتور .

والخلاصة — إنهم أتعبوا أنفسهم فى العبادة فى دار الدنيا فاستراحوا راحة دأمة فى الآخرة كما قال : « كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ؛ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) .

شرح المفردات

لا يقضى عليهم : أى لا يحكم عليهم بموت ثانٍ ، يسطرخون : أى يصبحون أشد الصياح للاستغاثة ، نعرمكم : أى نهلكم ، للظالمين : أى للكافرين ، نصير : أى معين يدفع عنهم العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن بين ما لعباده الذين أورثوا الكتاب من النعمة فى دار السرور التى قال فى مثلها القائل :

علياء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء
أردف ذلك بذكر ما لأضدادهم من النعمة زيادة فى سرورهم بما قاسوا فى الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم بما أوتوا من نعيم زائل وحبور لا يدوم .

الإيضاح

(والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) أى والذين ستروا ما تدل عليه العقول من شمس الآيات وأنوار الدلالات ، لهم نار جهنم لا يحكم عليهم فيها بموت ثانٍ فيستريحوا من الآلام ، ولا يخفف عنهم العذاب فيها ، بل كلما خبت زيد سعيها .

ونحو الآية قوله « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ » وقوله : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يَخْتَرِعُ عَنْهُمْ لَهُمْ فِيهِ مُبَلِسُونَ » وقوله : « كَلَّمَا خَبِتْ زِدْنَاَهُمْ سَعِيرًا » وقوله : « فَذُوقُوا فَلَئِنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » .

ثم بين أن هذا جزاء كل كافر بنعمة ربه ، جاحد بوحدانيته فقال :

(كذلك نجزي كل كفور) أى وهكذا نكافئ كل جاحد لآلاء الله منكر
رسله ، فندخله نار جهنم بما قدم من سيئات فى الدنيا .

(وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) أى وهم
يستغيثون ويضجون فى النار يقولون ربنا أخرجنا منها وأعدنا إلى دار الدنيا
نطعمك ونعمل غير الذى كنا نعمل من معصيتك ، وقد علم منهم أنه لو ردهم إلى هذه
الدار لعادوا إلى ما نهوا عنه .

وحينئذ يقال لهم تقرىبا وتوبيخا :

(أولم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكرة؟) أى أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم
من ينتفعون بالحق لا تنفعتم به مدة عمركم ؟

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم « فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » .

والخلاصة — إنه تعالى لا يجيبكم إلى ما طلبتم ، لأنكم كنتم عصاة ولو رددتم
لعدتم إلى ما نهيتهم عنه .

روى أحمد عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لقد أعذر الله إلى
عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر
الله تعالى إليه » .

(وجاءكم النذير) أى وجاءكم الرسول ومعه كتاب الله ينذركم بالعقاب إن خالفتم
أمره وتركتم طاعته .

والخلاصة — إنه احتج عليهم بأمرين : طول العمل ، وإرسال الرسل .

ونحو الآية قوله : « وَنَادَا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ . قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُتُبُونَ .
لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ كُفْرًا لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » وقوله : « كَلِمَاتٍ لَقِيَ
فِيهَا فَوْجٌ سَاءَ لَهُمْ حَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا
وَقُلْنَا : مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » .

وقد استبان مما تقدم أنهم لا يخرجون منها ، ومن ثم قال :
 (فذوقوا فما للظالمين من نصير) أى فذوقوا عذاب النار جزاء مخالفتكم للأنبياء
 فى حياتكم الدنيا ، وإن تجدوا لكم ناصرا يفتدكم مما أتم فيه من العذاب
 والسلاسل والأغلال .

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)
 هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَلَا
 يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ
 كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) .

شرح المفردات

ذات الصدور : هى المعتقدات والظنون التى فى النفوس ، والخلائف : واحدهم
 خليفة ؛ وهو الذى يقوم بما كان قائما به سلفه ، مقنا : أى بغضا واحتقارا ، خسارا :
 أى خسارة ؛ فالعمر كراهن مال إذا اشترى به صاحبه رضا الله ربح ، وإذا اشترى به
 سخطه خسر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم -
 أردف ذلك ببيان أن الله محيط بالأشياء علما ، فلو كان لهم نصير فى وقت ما لعلمه .
 إلى أنه تعالى لما نفي النصير على سبيل الاستمرار ، وكان ذلك مظنة أن يقال
 كيف يتخلدون فى العذاب وقد ظلموا فى أيام معدودات - أعقب ذلك بذكر أنه علم
 بما انطوت عليه ضمائرهم ، وأنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد ،
 فهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم .

الإيضاح

(إن الله عالم غيب السموات والأرض) أى إن الله عالم ما تخفون أيها المشركون في أنفسكم وما تضمرون وما تستنويون أن تفعلوه ، وما هو غائب عن أبصاركم في السموات والأرض ، فاتقوه أن يطلع عليكم وأنتم تضمرون الكيد لرسوله ، وتريدون إطفاء دينه ، وتنصرون آلهتكم التي لا تنفعكم شيئاً يوم القيامة .
ثم علل هذا بقوله :

(إنه علم بذات الصدور) أى لأنه علم بما تكنه السرائر ، وما تنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بما عمل .
وفي هذا إيماء إلى أنه لو مد أعمارهم لم يرجعوا عن الكفر أبداً ، فلا مطمع في صلاحهم .

ثم ذكر ما هو سبب آخر لعلمه بالغيب فقال :
(هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى هو الذى ألقى إليكم مقاليد التصرف والانتفاع بما فى الأرض لتشكروه بالتوحيد والطاعة .
(فن كفر فعليه كفره) أى فن غمط مثل هذه النعمة العظيمة فإتما يعود وبال ذلك إلى نفسه دون غيره ، لأنه هو المعاقب لاسواه .

ثم فصل ذلك وبينه بقوله :
(ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقْتاً) أى وكلما استمروا فى كفرهم أبغضهم ربهم وغضب عليهم .

(ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) أى وكلما اطمأنوا إليه خسروا أنفسهم يوم القيامة وحق عليهم سوء العذاب .

والتكرير للتنبيه إلى اقتضاء الكفر لكل من الأمرين التبيين على سبيل الاستقلال .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ؟ بَلْ إِنْ يَعْذِرُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؛ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبروني ، شرك : أى شركة ، يمسك : أى يحفظ ، وتزول : أى تضطرب وتنتقل من أما كتبها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه هو الذى استخلفهم فى الأرض - أكد هذا بأمره صلى الله عليه وسلم بما يضطربهم إلى الاعتراف بوحديته وعدم إشراك غيره معه .

الإيضاح

(قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرؤنى ماذا خلقوا من الأرض) أى أخبرونى أيها المشركون عن شركائكم الذين تدعونهم من دون الله من الأصنام والأوثان - أرؤنى أى جزء من الأرض أو من الأناسى والحيوان خلقوا حتى يستحقوا الإلهية والشركة .

والمخلاصة - أعلمتم هذه الآلهة ماهى ؟ وعلى أى حال هى ؟ فإن كنتم تعلمون أنها عاجزة ، فكيف تعبدونها ، وإن كنتم توهمتم فيها القدرة فأرؤنى أثرها ؟ (أم لهم شرك فى السموات) أى أم لهم شركة مع الله فى خلق السموات حتى يستحقوا ما زعمتم فيهم .

(أم آتيناكم كتابا فهم على بينة منه ؟) أى أم هناك كتاب أوتوه ينطق بأننا اتخذناهم شركاء ، فهم على حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة معنا .
 وخلاصة ما تقدم — أخبرونى عن تعبدونهم من دون الله ، هل استبدوا بخلق
 شىء من الأرض حتى يعبدوا كعبادة الله ، أولهم شركة معه فى خلق السموات ،
 وآتيناكم برهاننا بهذه الشركة .

الخلاصة : إن عبادة هؤلاء إما بدليل من العقل ، ولا عقل يحكم بعبادة من لا يخلق
 شيئا ، وإما بدليل من النقل ، وإن لم نؤت المشركين كتابا فيه الأمر بعبادة هؤلاء .
 وبعد أن نفى ما نفى من الحجج أضرب عنه بأن الذى حملهم على الشرك هو
 تقرير السلف للخلف وإضلال الرؤساء للأتباع وقولهم لهم : إن هؤلاء شفعاء يشفعون
 لهم عند الله إذا هم عبدوهم ، وإلى هذا أشار بقوله :

(بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) أى بل إنما اتبعوا فى ذلك آراء
 أسلافهم وضلالهم ، وما هى إلا غرور وأباطيل .

ولما أبان حقارة الأصنام أرشد إلى عظيمته تعالى فقال :

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) أى إن الله يمنع السموات أن
 تضطرب من أماكنها ، فترتفع أو تنخفض وينع الأرض من مثل ذلك ، ويحفظهما
 برباط خاص ، وهو ما يسميه العلماء نظام الجاذبية ، فجميع العوالم من الأرض والقمر
 والشمس والسيارات الأخرى تجرى فى مدارات خاصة بهذا النظام الذى وضع لها ،
 ولولا ذلك لتحطمت هذه الكرات المشاهدة وزالت عن أماكنها ، لكنها به ثبتت
 فى مواضعها واستقرت فى مدارتها .

(ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) أى وإن أشرفنا على الزوال
 ما استطاع أحد أن أمسكهما من بعد الله .

والخلاصة — إنه لا يقدر على دوانهما وبقائهما على هذا الوضع إلا اللطيف الخبير .

ونحو الآية قوله : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله :
« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ » .

(إنه كان حلما غفورا) ومن ثم حلم على المشركين وغفر ابن تاب منهم على
عظيم جرمهم المقتضى تعجيل العقوبة لهم .
والملاصة — إنه يحلم وينظر ، ويؤجل ولا يعجل ، ويسترو يغفر .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى
مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢)
استكبارًا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ،
فهل ينظرون إلا السنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد
لسنة الله تحويلا (٤٣) .

شرح المفردات

وأقسموا : أى حلف المشركون ، جهد أيمانهم : أى غاية اجتهادهم فيها ، نذير :
أى رسول ، أهدى من إحدى الأمم : المراد بها اليهود أو النصارى ، نفورا : أى تباعدا
عن الحق ، مكر السيئ : أى المكر السيئ الذى فيه خداع وكيد لرسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ولا يحيق : أى ولا يصيب ولا ينزل ، سنة الأولين : أى سنة الله فيهم
بتعذيب مكذبيهم ، تبديلا : بوضع الرحمة موضع العذاب ، تحويلا : بأن ينقل
عذابه من المكذبين إلى غيرهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام وبتكفيرهم
على هذا أشد التبكيت وضرب لهم الأمثال ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم ،

أردف ذلك بذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضاً، فقالت اليهود: ليست النصراني على شيء، وقالت النصراني: ليست اليهود على شيء، ثم هددهم بأن عقابهم ستكون الملاك الذي لا يحصى منه، وتلك سنة الله في الأولين من قبلمهم، وسنته لا تبديل فيها ولا تحويل.

الإيضاح

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) أى وأقسم المشركون بالله أغلظ الأيمان وبالغوا فيها أشد المبالغة: لئن جاءهم من الله رسول يندرهم بأسه، ليكونن أسلاك لطريق الحق وأشد قبولاً له من أى أمة من الأمم التى خلت من قبلهم.

(فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا، استكباراً فى الأرض ومكر السيء) أى ولكن حين جاءهم الرسول انعكست الآية، فما زادهم حبيته إلا بعداً من الإيمان بالله وانصرافاً عن الحق واستكباراً عن اتباع آيات الله، ومكروا بالناس مكرًا سيئاً فصودهم عن سبيل الله.

والخلاصة — إنه تبين أنه لاعهد لهم مع ادعائهم أنهم أوفى الناس، ولا صدق لهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق، وصار مثلهم مثل الإبل التى نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بدعائه نفرة وصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها.

ثم بين أن عقوبة مكرهم عادت عليهم بالووال بقوله:

(ولا يحق المكر السيء إلا بأهله) أى ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم

دون غيرهم.

روى الزهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لا تمكروا ولا تعينوا ما كرا فإن الله يقول: «وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا

فإن الله سبحانه يقول : « إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » ولا تنكثوا ولا تعينوا
نا كذا فإن الله يقول : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » .

وقد وقع مثل هذا في كلام العرب فقد قالوا: من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبًا.
والعبرة في الأمور بالعواقب ، والله يهمل ولا يهمل ووراء الدنيا الآخرة ، فإن لم
يجاز للماكر في هذه الدار فسيلقى الجزاء في الآخرة « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ
مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ؟ » .

ثم هددهم بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من العذاب فقال :

(فهل ينظرون إلا سنة الأولين) أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك
إلا أن أحل بهم من نقتى على شركهم بي وتكذيبهم رسولي - مثل ما أحلت بمن
قبلهم من أمثالهم الذين كذبوا رسالهم .
ثم علل انتظارهم للعذاب وتهديدهم به بقوله :

(فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً) أي وهذه سنة الله
في كل مكذب فلا تغير ولا تبدل ، ولن يجعل الرحمة موضع العذاب ، ولن يحول
العذاب من نفس إلى أخرى كما قال : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ
بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) .

المعنى الجملى

بعد أن هدد المشركين بجرىان سنة الله فيهم بإهلاكم كما أهلك المكذبين من قبلهم - نبيهم - إلى ذلك بما يشاهدونه من آثارهم في رحلاتهم للتجارة في الشام والعراق واليمن ، فقد خلت منهم منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة المال والولد ، وما أغنى ذلك عنهم شيئا ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره ، لأنه لا يعجزه شيء إذا أراد .

ثم ذكر خلقه بعباده وأنه لو أخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنسانا يدب على وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو البصير بحال عباده .

الإيضاح

(أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؟) أى أو لم يسر هؤلاء المشركون بالله في الأرض التي أهلكتنا فيها أهلها بكفرهم بنا وتكذيبهم رسلنا ، أثناء رحلاتهم التي يسلكونها إلى طريق الشام في تجارتهم ، فينظروا كيف كانت عاقبتهم - ألم نهلكهم ونخرب مساكنهم ونجعلهم مثلا لمن بعدهم فيتمظؤوا بهم وينزجروا عما هم عليه من الشرك بعبادتهم الآلهة من الأوثان والأصنام ؟

ثم بين أنهم إذا ساروا على تمردهم وعنادهم فهم لا يفلتون من عقابه فقال :

(وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض) أى ولن يعجز الله هؤلاء المشركون به المكذبون لرسوله فيسبقوه هربا وينجوا من الهلاك إذا هو أراد ذلك بهم ، لأنه لا يعجزه شيء يريده في السموات ولا في الأرض .

وغير خافٍ ما في هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد لهم .

ثم علل عدم عجزه عن شيء فيهما بقوله :

(إنه كان عليا قديرا) أي إنه تعالى عليم بمن يستحق أن يعجل له العقوبة ،

ومن قد تاب وأتاب إلى ربه ورجع عن ضلالتة ، قدير على الانتقام ممن شاء منهم ،
وعلى توفيق من أراد الإيمان .

ولما كان المشركون يستعجلون بالوعيد استهزاء فيقولون « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا

هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

بين أنه لا يعاجلهم بالعقوبة على ما كسبوا ، اللهم ينيبون أو ينيب بعضهم إلى ربه ،
ويتوب إلى رشده فقال :

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) أي ولو يعاقب

الله الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب واجترحوا من الآثام ما ترك على ظهر
الأرض نسمة تدب لشؤم المعاصي التي يفتنون فيها .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) أي ولكن يؤخر عقابهم ومواخذتهم

بما كسبوا إلى أجل حدده عنده لا يقصرون دونه ولا يتجاوزونه إذا بلغوه .

(فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) أي فإذا حل الأجل فإن الله

يجازي المكلفين بما عملوا من خير أو شر ، لا يخفى عليه شيء من أمرهم ، دق أو جل ،
ظهر أو بطن .

اللهم أحسن أعمالنا ظواهرها وبواطنها ، وتقبل منا ما نعمل مما يرضيك إنك

أنت الخبير البصير .

بجمل ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

- (١) الأدلة على قدرة الله بإبداعه للكون وأنه المنعم المتفضل .
- (٢) تذكير الناس بالنعمة ليشكروها .
- (٣) تثبيت فؤاد رسوله بذكر قصص المكذبين للأنبياء والمرسلين .
- (٤) نداء الناس عامة بأن يتحلوا بالفضائل ، ويتخلوا عن الرذائل ولا يتبعوا خطوات الشيطان ، وينظروا فيما أبدع الرحمن من الآيات في الأرض والسموات .
- (٥) ضرب الأمثال لما سلف من القسمين ، وإيضاح الطائفتين المؤمنة والكافرة .
- (٦) تقسيم المؤمنين إلى علماء محققين ، وصالحين متقين ، ثم تقسيمهم من حيث العمل أقساما ثلاثة .
- (٧) وصف عاقبة الكافرين والمؤمنين وما يلقاه كل منهما يوم القيامة .

سورة يس

هي مكية إلا قوله : « وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » فمدنية .

وآيها ثلاث وثمانون ، نزلت بعد سورة الجن .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه لما جاء في السورة السالفة قوله : « وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ » وقوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ » وقد أعرضوا عنه وكذبوه — افتتح هذه السورة بالقسم بصحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم .

(٢) إنه قال فيما قبلها « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » وقال في هذه : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » وقال : « وَالْقَمَرَ قَدَرًا مَنَازِلَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ

اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)
 إِنَّا نَحْنُ مُخَبِّرِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ
 فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)

شرح المفردات

(يس) تقدم الكلام في نظائره من الحروف للقطعة في أوائل السور، وأن الرأى
 الرجيح فيها أنها حروف تنبيه نحو ألا ويا، وينطق بأسمائها فيقال (ياسين) .
 روى عن ابن عباس أنه قال يس: أى يا إنسان بلغة طيء، والحكيم: أى
 ذى الحكمة، على صراط مستقيم: أى طريق قويم من عقائد صحيحة وشرائع حقة،
 حق: أى ثبت ووجب، الأغلال: واحدها غل، وهو ما يشده اليد إلى العنق
 للتعذيب والتشديد، والمتمح: الذى يرفع رأسه ويعرض بصره .
 قال أبو عبيدة: يقال قح البعير: إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب، من بين
 أيديهم: أى من أمامهم، فأغشيناهم: أى فغطينا أبصارهم، والذكر: القرآن،
 وخشى الرحمن: أى خشى عقابه، بالغيب: أى قبل حلوله ومعاينة أهواله، ماقدّموا:
 أى ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة، وآثارهم: أى ما أبقوه بعدهم من
 الحسنات كعلم علموه، أو كتاب آثوره، أو بناء فى سبيل الله بنوه، أو من السيئات
 كفرس بذور الضلالات بين الناس، فى إمام مبین: أى فى أصل يؤتم به .

الإيضاح

(يس) والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم) أى أقسم بالقرآن
 الحكيم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنك أيها الرسول لمن المرسلين
 الذين هم على دين قديم وشرع مستقيم .

(تنزيل العزيز الرحيم) أى هذا الصراط المستقيم ، والدين القويم ، تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » .

(ليتنذر قوما ما أنذر آبائهم فهم غافلون) أى إنا أرسلناك لتنذر العرب الذين لم يأتهم نذير من قبلك ، فهم فى غفلة عن معرفة الشرائع التى فيها سعادة البشر ، وإصلاح المجتمع .

وذكرهم وحدهم هنا ؛ لأن الخطاب كان معهم ، وهذا لا يمنع أنه مرسل إلى الناس كافة كما قال : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » .

(لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) أى لقد وجب العقاب على أكثرهم ، لأنه سبحانه سجل عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون به ولا يصدقون برسوله ، لما علم من خبث نفوسهم وسوء استعدادهم ، فلا تعمرو قلوبهم بالإيمان ، ولا تحبب لله فى أى زمان . ثم ضرب لهم مثلا فقال :

(إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون) أى إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى واصله إلى الأذقان ملصقة بها ، فهم من جراء ذلك مقمحون أى مرفوعو الرؤوس ، إذ أن طوق الغل الذى فى عنق المغلول يكون فى ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود خارجا من الحلقة إلى الذقن ، فلا يمكنه من أن يطأ رأسه فلا يزال مقمحا .

والمراد منعناهم بموانع عن الإيمان تشبه ما ذكر ، فهم غاصو أبصارهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له .

ثم أكد ما سبق وزاده بيانا وتفصيلا فقال :

(وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) أى إنه زُيِّن لهم سوء أعمالهم وأعجبوا بأنفسهم واستكبروا عن اتباع الرسول وشيخوا بأنفوسهم ولم يخضعوا لما جاءهم به وسدوا أبواب النظر عما ينفعهم ولم يقبلوا شيئاً سوى ما هم عليه ؛ فما مثاهم إلا مثل من أحاط به سدّان من الأمام والخلف فحجباه عن النظر فهو لا يبصر شيئاً .

والخلاصة — إنهم محبوسون في سجن الجهالة ، ممنوعون عن النظر في دلائل الأنفس ودلائل الكون ، محرومون عن التأمل فيما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية والتفكير في العواقب المستقبلية .

ثم ذكر فذلِكَ لما تقدم فقال :

(وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) أى وسواء على هؤلاء الذين حق عليهم القول ، إنذارك إياهم وتركه ، فإنه قد طبع الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون ، إذ قد خبثت نفوسهم وساء استعدادهم وعُشِّتْ أَبصارهم فلا تقدر على النظر في الدلائل المشاهدة ، ولا تستطيع التأمل في جمال الكون .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

ثم أعقب ذلك ببيان من يتأثر بالإنذار فقال :

(إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم) أى إنما ينفع إنذارك من آمن بالقرآن واتبع ما فيه من الأحكام وخشى عقاب الله قبل حلوله ومعاناة أهواله ، فإنه سبحانه عظيم الرحمة ، أليم العذاب كما قال : « نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفْوُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

فبشر هذا الذى اتبع أحكام الدين وخاف العقاب بمغفرة ما فرط منه من الزلات ، وأجر كريم ، ونعيم مقيم ، لا يستطيع وصفه مما لاعتين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

ثم ذكر ما يؤكد الخشية من الله وخوف عقابه بقوله :

(إنا نحن نحبي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) أى إنا نحبي الموتى جميعا من قبورهم يوم القيامة ، ونكتب ما أسلفوا من عمل ، وتركوا من أثر حسن بعدهم كعلم علموه أو حبيس في سبيل الله وقفوه ، أو مستشفى لنفع الأمة أنشئوه ، أو أثر سيء كفرس الأحمق والأضغان ، وترتيب مبادئ الشر والعدوان بين الأنام .

روى ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئا ، ثم تلا : وَنَكْتَبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » والمراد من كتابة ذلك مجازاتهم عليه إن خيرا نخير، وإن شرا فشر .

ثم ذكر أن الضبط والإحصاء لا يخص أعمال بنى آدم ، بل يتناول جميع الأشياء فقال :

(وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) أى وبيننا كل شيء وحفظناه في أصل عظيم يؤتم به ويتبع ولا يخالف ، وهو علمنا الأزلى القديم الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ونحو الآية قوله : « عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » وقوله : « وَكُلُّ شَيْءٍ قَعْلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ » .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقُرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم

مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ،
 إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِلَيْنَا يَكُنْ لَنَا حُكْمٌ وَأَنَا لَكَ
 وَاعِبُونَ (١٦) قَالُوا رَبَّنَا تَقَدَّرَ لَنَا بِكُمْ لَنْ لَمْ تَنْتَهُوا
 لَنْزُجِنَّاكُمْ وَلِيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧) قَالُوا طَارَكُمْ مَعَكُمْ ،
 أَنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ (١٨) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
 يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (١٩) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا
 وَهُمْ يَهْتَدُونَ (٢٠) وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)
 أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ
 شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٢) إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٣) إِنْ آمَنْتُ
 بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٤) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٥)
 بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ .

شرح المفردات

ضرب المثل : يستعمل تارة في تشبيه حال غريبة بأخرى مثلها كما في قوله :
 « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحٍ » الآية ، ويستعمل أخرى في ذكر
 حال غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تشبيهها بحال أخرى نحو قوله : « وَضَرَبْنَا
 لَكُمْ الْأَمْثَالَ » أى وبيئنا لكم أحوالا غاية في الغرابة كالأمثال ، والقريبة : هى
 أنطاكية كما روى عن قتادة وعكرمة ، والمرسلون : هم رسل عيسى من الحواريين ،
 فعرزنا : أى فقوتنا وشددنا ، البلاغ المبين : أى التبليغ الواضح الظاهر للرسالة ،

تَطَيَّرْنَا: أى تشاء منا ، نترجمكم : أى نرمينكم بالحجارة ، طائرکم : أى سبب شوكم مسرفون : أى مجاوزون الحد فى العصيان ، أقصى المدينة : أى أبعد مواضعها ، يسعى : أى يعدو ويسرع ، لاتئن : أى لاتنفع ، ولا ينتقدون : أى لا يخلصونى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين قد ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون — أردف ذلك بذكر مثل لقوم حالهم كحالهم فى الغلو فى الكفر والإصرار على التكذيب والاستكبار على الرسل وضم الأذان عن سماع الوعظ والإرشاد ، وهم أهل قرية أنطاكية ببلاد الشام ، فقد كان قصصهم مع رسل الله كقصص قومك معك فى العناد والاستكبار والعتو والظنيان .

الإيضاح

(واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) أى واجعل أصحاب قرية أنطاكية مثلا لهؤلاء القوم إذ أصروا على تكذيب الرسل الذين أرسلوا إليهم كما أصر قومك على تكذيبك عنادا واستكبارا .

والشهور لدى المفسرين ومنهم قتادة وغيره أن الرسل هم رسل عيسى عليه السلام من الخواريين بعثهم إلى أهل أنطاكية ، وكان منهم ما قصه الله علينا فى كتابه . ويرى ابن عباس واختاره كثير من جلة العلماء أن الرسل هم رسل الله أرسلهم ردءا لعيسى عليه السلام مقررين لشريعته كهرون لموسى عليه السلام ، ويؤيد ذلك :

(١) قولهم (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين) .

(٢) إنهم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : (إن أنتم إلا بشر مثلنا) .

(٣) إن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، فقد كانوا أول أهل مدينة

أمنت بالمسيح ومن ثم كانت إحدى المدن الأربع اللاتى فيها بطارقة ، وهن القدس

وأنطاكية والإسكندرية ورومية ، لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم ووطده ، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البطريق من رومية إليها .

ثم فصل ما تقدم وزاده بيانا فقال :

(إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فمزنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون) أى حين أرسلنا إليهم رسولين من عندنا فأسرعوا فى تكذيبهما فقويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث فقالوا لأهل القرية : إنا إليكم مرسلون من ربكم الذى خلقكم بأن تخلصوا له العبادة وتتهربوا مما تمبدون من الآلهة والأصنام .

والمشهور أن الرسولين الأولين كانا يوحنا وبؤس والرسول الثالث شمعون .

ثم ذكر شبهة كثيرة ما تمسك بها المكذبون للرسل من الأمم الماضية .

(قالوا ما أتمم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أتمم إلا تكذبون) أى قال أصحاب القرية للثلاثة الذين أرسلوا إليهم : ما أتمم إلا بشر مثلنا من غير مزية داعية لاختصاصكم بما تدعون ، وما أنزل الرحمن إليكم رسالة ولا كتابا ولا أمرم فينا بشىء ، ما أتمم إلا كاذبون فى قبيلكم إنا مرسلون إليكم .

وفى قولهم « ما أنزل الرحمن » إيماء إلى أنهم يعترفون بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام . وحينئذ رد عليهم الرسل مؤكدين رسالتهم .

(قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) أى فأجابهم الرسل قائلين : الله يعلم إنا رسله إليكم ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عقبى الدار ؟ .

ونحو الآية قوله : « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

ثم ذكر الرسل ما أمروا به فقالوا :

(وما علينا إلا البلاغ المبين) أى إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم رجتم وكانت لكم سعادة الدارين ، وإن لم تحيبيوا فستعلمون عاقبة تكذيبكم حين يحيق بكم الوبال والنكال .

والتبليغ المبين إنما يكون إذا اصطحب بالآيات الباهرة ، والمعجزات الدالة على أنهم رسل من عند الله .

والخلاصة — ما علينا من جهة ربنا إلا التبليغ المعزز بالآيات البينات وقد فعلنا . فأى شيء تطلبون منا حتى تصدقوا دعوانا ؟ .

ولما ضاقت بهؤلاء المكذبين الخيل وأعييتهم الحجج لجئوا إلى التهديد والوعيد . (قالوا إنا نظيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجنكم ولنمسنكم منا عذاب أليم) أى قالوا إنا نشاء منا من تبليغكم ودعوتكم ، فقد أفتتن بعض القوم بكم وتفرقت كلمتنا وانقرط عقد وحدتنا ، ولئن لم تنتهوا عن بث هذه الدعوة بيننا لنرجنكم بالحجارة رجما ولنمثن بكم شر التمثيل أو لنعذبكم عذابا شديدا وأتم أحياء .

والخلاصة — إنا إما نقتلكم أو نلقيكم فى غيابات السجون وننكل بكم تنكيلا عظيما .

حينئذ أجاهم الرسل :

(قالوا طائركم معكم) أى قالوا لهم سبب شؤمكم من أفعالكم لا من قبلنا كما ترعون ، فأنتم أشركتم بالله سواء وأولعتم بالمعاصى واجترحتم السيئات ، أما نحن فلا شؤم من قبلنا ، فإنا لاندعو إلا إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له والإجابة إليه، وفى ذلك منتهى المبين والبركة .

(أئن ذكركم بل أنتم قوم مسرفون) أى أمن جرء أنا ذكركم وأمرناكم بعبادة الله مخلصين له الدين تقابلوننا بمثل هذا الوعيد ؟ ، بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف ومجاوزة الحد فى الطغيان، ومن ثم جاءكم الشؤم ولادخل لرسول الله فى ذلك .

والخلاصة — أتم قوم مسرفون في ضلالكم متادون في غيكم تتشاءمون بمن
يجب التبرك بهم من هداة الدين ، فقد جعلتم أسباب السعادة أسبابا للشقاء .
ولا يخفى ما في ذلك من شديد التوبيخ وعظيم التهديد والتنبيه إلى سوء صنيعهم
بحرمانهم من الخيرات ، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون « فَإِذَا جَاءَتْهُمْ
الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَأَّثَهُمْ
عِنْدَ اللَّهِ »

ثم أبان أن الحق لا يعدم نصيرا وأن الله يفيض له من يدافع عنه فقال :

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من
لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) أى وجاء من أطراف المدينة رجل يعدو مسرعا لينصح
قومه حين بلغه أنهم عقدوا النية على قتل الرسل فتقدم للذب عنهم ابتغاء وجه الله
ونيل ثوابه ، قال يا قوم اتبعوا رسل الله الذين لا يطلبون منكم أجرا على تبليغهم
ولا يطلبون علوا في الأرض ولا فسادا ، وهم سالكون طريق الهداية التي توصل إلى
سعادة الدارين .

روى أن هذا الرجل يسمى حبيبا ، وكان نجارا ، قال ابن أبي ليلى : سابقو
الأمم ثلاثة لم يكفروا قط طرفة عين : على بن أبي طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن
آل فرعون . ورواه الزمخشري حديثا ، وقال ابن كثير إنه حديث منكر .
ثم أبان لهم أنه ما اختار لهم إلا ما اختاره لنفسه فقال :

(وما لى لأ أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟) أى وما يمتنعى من إخلاص
العبادة للذى خلقنى ، وإليه المرجع للجزاء يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا
فخير ، وإن شرا فشر .

وفى هذا تفرغ لهم بتركهم عبادة الخالق وعبادة غيره ، وتهديد بتخوينهم
بالرجوع إلى شديد العقاب .

ثم أعاد التوبيخ مرة أخرى مبينا عظيم حَقِّهم فقال :

(أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتفن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ؟) أى أعبد من دون الله آلهة لاتملك من الأمر شيئا ، وهو لو أرادنى بسوء فلا كاشف له إلا هو ، ولا تملك الآلهة دفعه عنى ولا منعه .

(إبنى إذا لنى ضلال مبين) أى إبنى إذا فعلت ذلك واتخذت من دونه آلهة لنى ضلال بين لاينخى على من له أدنى مسكة من عقل ، فإن إشارك من لا يخلق وليس من شأنه النفع والضر بمن يخلق وهو القادر على كل شىء - خطأ ظاهر وغلط واضح لدى أرباب الأحلام وذوى الحجاء .

ثم التفت إلى الرسل وخاطبهم منيبا إلى ربه فقال :

(إبنى آمنتم بربكم فاسمعون) أى إبنى آمنتم بربكم الذى أرسلكم فاشهدوا لى بذلك عنده .

روى أنه لما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يجد من يدافع عنه . قال قتادة : جعلوا يرحمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، فلم يزالوا به كذلك حتى فارق الحياة .

ثم ذكر مآل أمره وما قاله حين وجد النعيم والكرامة ، فقال :

(قيل ادخل الجنة ، قال يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربي وجعلنى من المكرمين) أى قال الله له : ادخل الجنة كفاء ما قدمت من عمل وأسلفت من إحسان ، فلما دخلها وعان ما أكرمه الله به لإيمانه وصبره قال : ليت قومى يعلمون بما أنا فيه من نعيم وخير عميم لإيمانى بربى وتصديقى برسله وصبرى على أذى قومى ، وإيمانى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب المثوبة مثله بالتوبة عن الكفر والدخول فى حظيرة الإيمان والطاعة اتباعا لسنن أولياء الله الذين يكظمون الغيظ ويترحمون على الأعداء .

قال ابن عباس : نصح قومه حيا بقوله : (يا قوم اتبعوا المرسلين) وبعد مماته بقوله : (يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) .

وإلى هنا وقف القلم فى تفسير هذا الجزء من الكتاب الكريم . وكان الفراغ منه بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية فى اليوم الثامن عشر من شعبان سنة أربع وستين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية .
والحمد لله على إحسانه وإنعامه ، وصلّى ربنا على محمد وآله الطيبين الأخيار وصحبه الأبرار .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

المبحث	الصفحة
مضاعفة ثواب أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .	٣
مكاتبهن بين النساء وأمرهن بالقرار فى البيوت .	٥
من هم أهل البيت ؟ .	٧
ما أعدده الله للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة فى الدار الآخرة .	٨
الأوصاف التى يستحق بها عباده الثواب العظيم .	٩
أى المجاهدين أعظم لله أجراً ؟ . ١١ قصة زينب بنت جحش .	١٠
الحكمة فى زواجه صلى الله عليه وسلم بها .	١٢
ما كانت تفخر به زينب على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم .	١٥
أبوّة محمد صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أبوّة تعظيم وإجلال .	١٦
أولاد النبى عليه الصلاة والسلام .	١٧
أمره عليه الصلاة والسلام باحتمال أذى المشركين وبالتوكل عليه .	١٩
لاعدة لمطلقة قبل الدخول .	٢٠
بعض خصائص النبى صلى الله عليه وسلم فى الزواج .	٢٣
تخييره صلى الله عليه وسلم فى مضاجعة من شاء من نسائه .	٢٥
نهيته صلى الله عليه وسلم عن زواج غير الموجودات معه ، وعن استبدال غيرهن بهنّ . ٢٧ آية الحجاب وما فيها من أحكام وآداب .	٢٦
النهى عن إزعاج النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان فى الخلوة .	٢٨
يحرم اللبث على المدعوّ إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت .	٢٩

المبحث	الصفحة
قال عمر : وافقت ربي في ثلاث .	٣٠
منع المؤمن عن نكاح أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .	٣١
احترام النبي صلى الله عليه وسلم في الملا الأعلى والملا الأدنى .	٣٣
من نسب إلى مؤمن أو مؤمنة ما لم يعملها فقد اجترح إثمًا عظيمًا .	٣٥
أمر النساء بالتستر وإرخاء الجلابيب صيانة لمن عن الأذى .	٣٧
توعد الله أصنافًا ثلاثة : بالقتال ، والقتل ، أو النفي من الديار .	٣٨
ندم المشركين يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا أطاعوا الله .	٤١
الأقوال والأفعال التي تكون سبب الفوز العظيم .	٤٤
فعل التكليف الشرعية وسيلة الظفر والفلاح .	٤٦
أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم . ٤٨ الأسباب العامة لذلك .	٤٧
الأسباب الخاصة بزواج كل واحدة من أمهات المؤمنين .	٤٩
أسباب إباحة تعدد الزوجات في الإسلام .	٥٢
ما حوته سورة الأحزاب من أغراض ومقاصد .	٥٣
وجه اتصال سورة سبا بما قبلها .	٥٥
شمول علمه تعالى لكل ما في السموات والأرض .	٥٦
إثبات البعث والجزاء . ٥٨ الحكمة في البعث والجزاء .	٥٧
أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم يمتقدون قيامها ومجيئها	٥٩
ما قاله المشركون على سبيل التهمك من قال بالبعث .	٦٠
ادعائهم أن هذه المقالة لا يقولها إلا مفتر أو مجنون .	٦١
تنبيههم إلى ما يرون من آثار قدرته تعالى .	٦٢
ما آتى الله داود من فضل ونعمة . ٦٤ تسخير الريح لسليمان .	٦٣
تسخير الجن . ٦٧ الأرضة دلت على موت سليمان عليه السلام .	٦٦

المبحث	الصفحة
عقاب المعرضين عن شكر النعم . ٧١ . سد مأرب — سدّ العرم .	٧٠
الكشف الحديث دل على صدق ما جاء في القرآن .	٧٢
النعم التي أوتيتها السبئيون .	٧٣
عقاب أهل سبأ باتباعهم لوسوس الشيطان .	٧٤
طغيانهم في الأرض وإفسادهم إلا قليلا منهم .	٧٥
تأنيب قريش على عبادتها الأوثان والأصنام .	٧٦
الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن الله له بها .	٧٨
أمر الرسول بأن يقول للمشركين : على إجرامي وعليكم إجرامكم ، والحاكم بيننا هو الله .	٧٩
رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للأسود والأحر .	٨٢
استعجال المشركين للعذاب تهكما وازدراء .	٨٣
إنكار المشركين للقرآن والكتب التي قبله .	٨٤
الحوار الذي بين المشركين ومعبودتهم يوم القيامة .	٨٥
تسليّة الرسول صلى الله عليه وسلم على إنكار مترفي قومه له ، وبيان أنهم ليسوا ببدع في ذلك .	٨٦
سعة الرزق لا تدل على رضا الله عن المرء ولا غضبه عليه .	٨٨
العمل الصالح مع الإيمان هو الزانق عند الله .	٨٩
في الحديث : « اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وعمسكاً تلقاً » .	٩٠
أكثر المشركين مؤمنون بالجن مصدقون لهم فيما يقولون .	٩١
قال المشركون : القرآن إفك مفترى وإنه سحر بين .	٩٤
ماردّ به سبحانه على هذه المقالة .	٩٥
طالب الله الكفار بالتريث في هذا الحكم ليعلموا الحق .	٩٦
سبب نزول الآية (تبت يدا أبي لهب) .	٩٧

الصفحة	المبحث
٩٨	العدة بنشر الإسلام وتبليج نوره .
٩٩	« إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سمياً » الحديث .
١٠١	أنى لهم الإيمان يوم القيامة وقد كفروا من قبل؟ .
١٠٤	الأجنحة - فى العالم المادى تساعد على الطيران ، وفى عالم الأرواح ترشد إلى القدرة .
١٠٥	ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من الصلاة و بعد الرفع من الركوع .
١٠٦	الأمر بذكر النعم والشكر عليها .
١٠٧	تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ليس ببدع بين الرسل .
١٠٩	لحزب الشيطان العذاب الشديد ولحزب الله المغفرة .
١١٠	ضرب المثل على تحقق البعث والنشور .
١١٣	لمن سعى فى ضعف الإسلام عذاب شديد والله يحبط عمله .
١١٤	الآجال والأعمار أحصاها الله فى كتاب .
١١٥	البراهين الدالة على الوحدانية والقدرة .
١١٧	النعى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان .
١١٨	من أصول الدين أن لاتزر وازرة وزر أخرى .
١١٩	البشارة والإنذار إنما تجدى نفعاً لدى من يخشى الله .
١٢٠	تسليية الرسول عن عدم قبول المشركين دعوته .
١٢١	لم يترك الله أمة سدى بلا نذير . ١٢٣ الهداية والتوفيق بيد الله سبحانه .
١٢٤	قومك ليسوا ببدع فى الأمم . ١٢٥ الاعتبار بالآيات الكونية .
١٢٦	لا يعلم بديع صنع الله إلا العالم بأسرار الكون .
١٢٨	الذين يتبعون أحكام الدين لهم تجارة لن تبور .
١٢٩	القرآن الكريم مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية .

المبحث	الصفحة
المؤمنون أقسام ثلاثة .	١٣٠
المؤمنون حين يدخلون الجنة يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن .	١٣١
الكافرون يوم القيامة يطلبون العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً .	١٣٢
ما أجبوا به عن هذا الطلب . ١٣٤ علم الله تعالى محيط بجميع الأشياء .	١٣٣
تبكيت المشركين على عبادة الأوثان .	١٣٦
نظام الجاذبية .	١٣٧
إنكارهم لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مترقبين لها .	١٣٩
تهديد المشركين بحلول العقاب كما حل بمن قبلهم .	١٤٠
تنبيههم إلى آثار الغابرين الذين خلوا من قبلهم .	١٤١
لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة .	١٤٢
محمل ما حوته سورة فاطر من حكم وأحكام .	١٤٣
وجه اتصال سورة يس بما قبلها .	١٤٤
المراد بيباسين .	١٤٥
جعل الأغلال في عنق أهل النار .	١٤٦
لا فائدة في إنذار هؤلاء المشركين .	١٤٧
من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده .	١٤٨
ضرب المثل بأهل أنطاكية .	١٤٩
من رسل الله الذين أرسلوا إلى أهل أنطاكية ؟ .	١٥٠
مقالة أهل القرية للرسل .	١٥١
مارد به الرسل عليهم .	١٥٢
الحق لا يعدم نصيراً .	١٥٣
مآل أمر ذلك الواعظ .	١٥٤